بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة النساء

ننتقل الآن إلىٰ سورة أخرىٰ من سور القرآن الكريم، وهي سورة «النساء»، وهي سورة مدنية نزلت علىٰ النبي ﷺ في العهد المدني للدعوة الإسلامية.

وتهتم ببناء الجماعة المسلمة، وإنشاء المجتمع المسلم، وحماية تلك الجماعة، وصيانة هذا المجتمع من الذوبان، أو الانحراف عن الطريق الصحيح.

كما تهتم بعملية تكييف ملامح المجتمع المسلم الجديد، وإبراز شخصيته الخاصة به.

والسورة تبدأ بخطاب يعم المكلفين جميعًا من الناس، الموجودين ساعة نزول السورة، ومَن سيوجد منهم إلىٰ يوم القيامة. حيث يقول ربنا تبارك وتعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾

يعني: يا بني آدم ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ الذي خلقكم وفرَّعكم من أصل واحد، هو نفس آدم أبيكم، الذي خلقه الله من تراب، وخلق من هذه النفس زوجها حواء، ثم أنشأ ونشر، وشعَّب من آدم وحواء معًا رجالًا كثيرًا، ونساءً كثيرات.

ثم يكرر للاهتمام، الأمر بالتقوىٰ، فيقول سبحانه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ﴾ **أي**: واتقوا الله الذي تعظِّمونه، فلا تخالفوا أوامره بل أطيعوه، واجتهدوا في مرضاته، واتقوا الأرحام.. فلا تقطعوها، وتسيئوا إليها، بل صِلوها، وبرُّوها، وأحسنوا إليها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ يعني حافظًا لأعمالكم، ومراقبًا لها، فمجازيكم عليها فراقبوه، وأطيعوه ولا تعصوه.

وبعد أن أمر الله تعالىٰ بالتقوىٰ كما رأينا، يذكر سبحانه أشياء مطلوب فيها تقوىٰ الله عز وجل.

ويبدأ ـ جل شأنه ـ بذكر اليتامىٰ وأمورهم؛ لإظهار كمال عنايته واهتمامه بهم، وكذلك لملابستهم بالأرحام إذْ يقول جل شأنه:

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾

وهكذا يأمر تعالىٰ الأوصياء علىٰ اليتامىٰ، بدفع أموالهم إليهم، إذا بلغوا الحلم ـ **أي**: سن الرشد ـ كاملًا دون نقصان.

كما نهىٰ سبحانه الأوصياء علىٰ اليتامىٰ من أخذ الجيد من المال لأنفسهم، وترك الرديء منه لليتامى.

وينهىٰ ربنا ـ ثالثًا ـ الأوصياء بعدم خلط الأموال بعضها إلىٰ بعض، مما يؤدي إلىٰ تضييعها من اليتامىٰ، وأكلها منهم، ثم يهدد ويخوف مَن يفعل ذلك بقوله:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ أي: ذنبًا عظيمًا، يتنافىٰ مع تقوىٰ الله، ورضوانه.

هذه الآية الكريمة: نزلت عندما طلب يتيم من عمه الوصي عليه شيئًا من ماله الذي له عنده، فرفض عمه طلبه، ثم رُفع الأمر إلىٰ النبي ﷺ فنزلت، أتدرون ماذا حدث من عمه حينئذ؟

قال: أطعنا الله، وأطعنا الرسول، نعوذ بالله من الحَوْب الكبير، ودفع لليتيم المال. تقول الرواية: وأخذ اليتيم المال، وأنفق منه في سبيل الله.

المهم، أنه بعد نزول هذه الآية وهذا الحكم، تحرَّج المسلمون من ولايتهم لليتامىٰ، وخافوا من الوقوع فيما يغضب الله منهم بسبب ذلك، بل إن أكثرهم واقع فيما كان التهديد من الله والتخويف منه.

حيث إن الواحد منهم، حينما يكون وصيًّا علىٰ يتيمة عندها مال، وفيها جمال يتزوجها؛ رغبة في مالها، وأملًا في أن يرثها إذا ماتت، حتىٰ ولو اجتمع عنده منهن العشر زوجات.

ولأن هذا ظلم واقع علىٰ اليتامىٰ من جهة، وعلىٰ أموالهن من جهة أخرىٰ، فقد نهىٰ الله عنه، حيث قال عز وجل:

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾﴾

أي: إن تحرَّجتم من ولاية اليتامى؛ بسبب خوفكم من عدم العدل في أموالهنَّ، فلا عليكم من خوف، بشرط أن تعدلوا.

أما إن كان عدم العدل فيهن، وفي أموالهن إذا تزوجتموهن، فلا تتزوجوهن؛ طلبًا للعدل، ومرضاة لله، ولكم في غيرهن من النساء الكثيرات.

وكأني بسائل يسأل: كم يحل لي منهن كزوجات؟.

الجواب: ثنتين إن شاء أحدكم، أو: ثلاث، أو: أربع فقط.

ولا يزيد علىٰ ذلك، **بشرط:** العدل بينهن.

ولكن.. ما الحكم إذا خاف عدم العدل بينهن..؟

يقول تعالىٰ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ في هذه الحالة يكتفىٰ بواحدة فقط من النساء الحرائر، أو من الجواري ـ لو وجد ذلك ـ ما شاء مما ملكت يمينه منهن، واختيار الواحدة، والاكتفاء بها أقرب إلىٰ العدل وعدم الظلم.

وما دام الحديث قد تطرَّق إلىٰ الزواج، فلا بد من إيتاء النساء مهورهن، حيث يقول ربنا العزيز الحكيم:

﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴿٤﴾﴾

وهذا أمر بإعطاء النساء مهورهن من باب الفريضة الواجبة، وهذا الأمر للأزواج.

وقال بعض العلماء: إنه لأولياء الأمور، الذين يأخذون المهور أو بعضها لأنفسهم، كما يفعل في بعض البلدان من بعض أهلها.

وفي هذه الحالة فالأمر للأزواج، ولأولياء الأمور معًا أن يعطوا الصداق للمرأة، فهو ملكها خاص بها، فإن أعطت منه شيئًا بطيب نفس منها للزوج أو لولي أمرها، فلا حرج في ذلك، ولا إثم فيه.

وإن كان المولىٰ قد أمر بإيتاء اليتامىٰ أموالهم كما رأينا منذ قليل، وكان هذا من تقوىٰ الله، فإنه لا ينبغي إعطاؤها لهم إلَّا إذا كانوا عقلاء، راشدين، يحسنون التصرف فيها، وهو في ذات الوقت من تقوىٰ الله. يقول عز من قائل:

﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾﴾

أي: يا أولياء اليتامىٰ، لا تعطوا السفهاء غير العقلاء منهم هذه الأموال، ولا تُمكِّنوهم من التصرف فيها؛ تصرفًا يضرّ بها ويُهلكها، فإن هذه الأموال ليست للعبث بها ولا لتضييعها؛ بل جعلها الله للناس قيامًا تقوم بها معايشهم، من التجارات فيها، وغير ذلك.

ولكن ليس معنى ذلك أن تمنعوا المال عن هؤلاء اليتامىٰ غير العقلاء إلىٰ درجة الإيذاء لهم لا. وألف لا..!!

بل أحسنوا إليهم يا أوصياءهم بالإنفاق عليهم في الملبس والمأكل والمشرب والمسكن.. إلخ، مما تتطلبه حياتهم، مع الكلام الطيب لهم، والمعاملة الحسنة معهم.

وإذا كان المولىٰ عز وجل، قد نهىٰ عن إعطاء اليتامىٰ غير العقلاء أموالهم ـ كما رأينا- فليس المراد المنع المطلق منهم، وليس المراد كذلك الإيتاء المطلق لهم.

بل لا بد من إجراء اختبار لليتيم قبل إعطاء الوصي عليه ماله له.

يقول الحق سبحانه وتعالىٰ:

﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾

يعني: اختبروا اليتامىٰ ـ قبل سن البلوغ ـ في عقولهم، وزنوا أحوالهم، ومعرفتهم بالتصرف، فإن وجدتم منهم صلاحًا في المعاملات، ورشدًا في التصرفات، فسلّموا إليهم أموالهم التي لهم تحت أيديكم. وهنا ينبغي أن نلاحظ أمرين:

الأول: أمر الأكل بالنسبة لكم من هذه الأموال، وهذا يبينه الله تعالىٰ في قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟﴾ .

يعني: ولا تأكلوا منها مسرفين، ومبادرين كبرهم، أي: قائلين ننفق منها فيما نشتهي قبل أن يكبر اليتامىٰ، فينزعوها من أيدينا، ويأخذوها نهائيًا.

وكأن قائلًا يقول: إن الضرورات قد تحكم بالأكل منها.

فما الحكم..؟ يقول تعالىٰ: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ﴾ .

والمعنىٰ: أن الوصي علىٰ اليتيم، إما أن يكون غنيًا، أو فقيرًا.

فإذا كان غنيًا، فليكن عفيفًا عن الأكل من مال اليتيم، بل يطلب الزيادة في العفة بالحذر الدائم من ذلك.

وإن كان الوصي فقيرًا، فليأكل بقدر حاجته الضرروية وبالمعروف، لا إسراف فيه، ولا ضرر منه.

وأما الأمر الثاني الذي تنبغي ملاحظته: فهو ضرورة الإشهاد عند دفع المال لليتيم، وتسليمه له.

يقول الله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ﴾.

وذلك: لئلا يقع إنكار من بعضهم، لمَا تسلَّمه، أو لبعض ما تسلمه من وليه؛ فتكون المشاحنات والعداوات والبغضاء.

وبعد كل ذلك يُذكِّر الله تعالىٰ الأوصياء علىٰ اليتامى برقابته عليهم، ومحاسبته لهم.

فيقول: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾.

أي: أن الله تعالىٰ خير الرقباء والمحاسبين، لا يرضىٰ بظلم ولا نقصان في الحقوق ولا إساءة في وصاية أو ولاية.

وعليه: فلا تظلموا اليتامىٰ حال وصايتكم عليهم، ولا تسيئوا إليهم، ولا تبخسوهم حقوقهم عند تسليمكم لها إليهم.

هذا، ولمَّا كان اليتامىٰ من أصناف المجتمع التي قد يقع عليها الظلم..!! وقد تم علاج ذلك، ببيان أحكامه في الآيات السابقة.

ولمَّا كان ـ كذلك ـ من أصناف المجتمع التي قد يقع ـ بل يقع ـ عليها الظلم، هن النساء.. !! فقد اهتم الإسلام بعلاج ذلك بوضع مبادئ وقواعد، لا ينبغي مخالفتها بل يأثم مَن يخالفها. وذلك في قوله تعالىٰ:

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾﴾

يعني بذلك: أن الرجال والنساء سواء في استحقاق الوراثة، ما داموا سواء في سبب هذا الاستحقاق. حتىٰ وإن تفاوتوا في نصيب كل منهم؛ بسبب الذكورة أو الأنوثة، أو بعلاقته بالميت من قرابة، أو زوجية، أو غير ذلك، وهذا النصيب الذي للرجال أو النساء، يُعد من المشرَّع. ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ أي: نصيبًا ومقدارًا مقطوعًا مفروضًا لهم، واجب تسليمه وإعطاؤهم إياه.

وهذا المقدار: سوف يتَّضح بعد ثلاث آيات، أي: ابتداء من قوله تعالىٰ: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ [النساء: ١١].

ولكن هنا وبمناسبة الكلام عن الأنصبة، وما سيأتي من تقسيم التركة علىٰ الورثة، فإن هناك بعض الأقارب الذين لا يرثون، وهم في ذات الوقت فقراء، أو مساكين، أو يتامىٰ، وقد يحضرون حال قسمة التركة، ويحدث في نفوسهم ما قد يحدث، بسبب هذه الأموال التي لا نصيب لهم فيها.

فما العمل إذن..؟ لا ينساهم المشرِّع الحكيم.. بل يأمر الورثة بقوله تعالىٰ:

﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾﴾

أي: إذا حضر قسمة التركة علىٰ الورثة ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ممن لا يرث، ولا نصيب له، ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ﴾ الأجانب، فأعطوهم شيئًا من المال المقسوم، تطييبًا لقلوبهم، وتصدقًا عليهم، دون منّ، ودون أذى، بل ﴿وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ مما تُعورِفَ عليه في مثل هذه الأحوال..

كقول القائل: خذوا بارك الله فيكم ولكم، إلىٰ غير ذلك من طيب القول.

ثم يحذِّر ربنا ـ جلَّت حكمته ـ الأوصياء علىٰ اليتامى، من ظلمهم، وذلك من خلال أمره عز وجل لهم أن يخشوا الله ويتقوه في أمر اليتامىٰ، فيفعلون بهم ما يحبون أن يُفعل بذراريهم وأولادهم الضعفاء، إذ يقول جل جلاله:

obeikandl.com

﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾

هذه الآية تؤدِّب الأولياء والأوصياء بالأدب الإيماني، والتربية الربانية، المبنية على تقوىٰ الله، والخشية منه في معاملة مَن يَلونَ أمرهم من اليتامى معاملة حسنة كريمة، كما يعاملون أولادهم.

ثم عاد الكلام إلىٰ الأكل من أموال اليتامىٰ، الذي تبيّن حكمه سابقًا، ولكن هذه المرة بالتخويف من أكله ظلمًا، حيث يقول ربنا العزيز الحكيم:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾

يعني: إن الذين يأكلون أموال اليتامىٰ ظلمًا، إنما يملؤون بطونهم نارًا؛ لأنهم أكلوا ما يجر إلىٰ النار بأكلهم حقوقهم، وفوق ذلك: يدخلون نارًا يُعذبون فيها.

هل تذكرون قوله تعالىٰ: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ﴾ [النساء: ٧] الذي تحدثنا عنه منذ قليل؟ أعتقد أن الجواب: نعم.

إذًا.. اعلموا أن هذه الآية ذكرت المواريث إجمالًا.

وبقي تفصيل هذه المواريث من حيث: الأنصبة، والوارثين، وغير ذلك.

وإليكم بداية هذا التفصيل، كما في قوله تعالىٰ:

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾

الوارثون: ثلاثة أقسام:

الأول: الأولاد والآباء، **والثاني**: الأزواج. **والقسم الثالث**: الكلالة.

والآية السابقة تتحدَّث عن القسم الأول، وسيأتي الكلام عن الباقي ـ بإذن الله ـ قريبًا.

ومعنىٰ الآية السابقة بالنسبة للأولاد: يأمركم الله، ويعهد إليكم بالعدل في الأولاد، ذكورًا وإناثًا في أصل الميراث، فلا تحرم البنت، أو الصغير، أو غير المحبوب منهم.

ومن العدل: التفاوت بين الصنفين في النصيب والمقدار، حيث جعل الله ـ تعالىٰ ـ للذكر مثل حظ الأنثيين، وذلك لاحتياج الرجل إلىٰ مؤنة النفقة، والكلفة، ومعاناة التجارة، والتكسب، وتحمل المشاق. ولذلك ناسب أن يُعْطَىٰ ضِعْفَيْ ما تأخذه الأنثىٰ.

فإن كان الأولاد الورثة إناثًا فقط: اثنتين، أو ثلاثًا فصاعدًا: فلهن الثلثان من تركة الميت، وإن كانت واحدة فلها نصف التركة.

لاحظوا أيها الأحبة.. أن الله عز وجل قدم الأولاد في شأن الميراث، وبدأ بهم قبل غيرهم؛ لأنهم أقرب إلىٰ الميت، وأكثرهم بقاءً بعد المورِّث.

تعالوا بنا ـ الآن ـ إلىٰ أحكام الآباء في الميراث، يقول جل جلاله:

﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ﴾ .

معنىٰ الآية: أن الميت إذا كان له أبوان وله معهم أولاد ـ أو أولاد أولاد ـ ذكورًا أو إناثًا، فلكل واحد من أبويه السدس، والباقي للأولاد، للذكر منهم مثل حظ الأنثيين.

وأما إن كان له أبوان.. وله معهم بنت واحدة: فلكل واحد من أبويه السدس، وللبنت النصف، والباقي للأب يرثه تعصيبًا؛ لقول النبي ﷺ: «**ألحقوا الفروض بأهلها، وما تبقى فلأوْلى رجل ذكر**» وأولىٰ رجل ذكر ـ في حالة عدم وجود الابن، أو ابن الابن ـ هو الأب.

وإذا كان له أبوان فقط دون أولاد، أو أبوان مع زوج دون أولاد، فللأم الثلث في الأولىٰ، أو ثلث ما يبقىٰ بعد نصيب الزوج، والباقى في الحالتين ـ وهو الثلثان ـ للأب.

وإذا كان للميت أبوان وله معهم إخوة، ذكورًا أو إناثًا، فللأم السدس؛ حيث حجبها

الإخوة من الثلث إلىٰ السدس لصالحهم عند عدم وجود الأب، وللأب الباقي؛ ولا شيء للإخوة؛ حيث حجبوا بالأب عند وجوده.

ويلاحظ جيدًا: أن كل هذه الأنصبة من الميراث التي سبق ذكرها تفصيلًا، بالنسبة للأولاد أو الآباء، لا ينبغي أن يتم توزيعها، إلَّا بعد تنفيذ وصية الميت، ودفع الدَّين الذي عليه، يقول عز وجل: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾.

هذا، وقد أجمع العلماء علىٰ أن قضاء الدين مقدم علىٰ تنفيذ الوصية.

ولكنها، قدمت في الذكر والتلاوة ـ كما نراها ـ ليسارعوا في إخراجها، وتنفيذها مع الدَّين؛ حيث إن إخراج ما نصَّت عليه الوصية مما يشق علىٰ النفس، بخلاف الدَّين.

ولذلك كان التقديم للاهتمام بشأنها، والحث علىٰ الإسراع بتنفيذها.

قسَّم الله المواريث، وزرع الأنصبة، وِفْق حكمة لا يعلمها إلَّا الله.

ولذا يقول جلَّت حكمته: ﴿ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ﴾ أي: أنفع لكم في الدنيا والآخرة، حيث إن البعض يظن أن ابنه أنفع له.. فيعطيه الميراث، فكيون الأب أنفع، وبالعكس. وإنما العالم بذلك هو الله وحده.

وفي هذا التنبيه توبيخ لمن خالف أحكام الله في الميراث، وحصر ميراثه في أبيه فقط، أو في ابنه فقط، أو في بعض الورثة فقط، وحَرَمَ الباقين، وهو لا يعلم مَن الأنفع له. ولو ترك الأمر علىٰ ما هو عليه ليأخذ كلٌ ما فرض الله له، لكان أولىٰ، وأجدر بنوال مرضاة الله،

وعلىٰ كُل فهذه الأحكام المذكورة، والأنصبة المحددة لا تخضع للمزاج، أو الهوىٰ، بل جعلها سبحانه: ﴿فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾.

أي: كل ذلك علىٰ سبيل الفرض والإلزام الذي لا تجوز مخالفته، بل يُعاقب مَن لا ينفذه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾.

أي: لم يزل عليمًا بمصالح خلقه، حكيمًا فيما يقضي ويفرض عليهم، ويقدِّر لهم.

فما أجهل مَن رفض هذه الأحكام..!! وما أحمق مَن عاندها..!! وما أكثرهم في عصرنا.. !! هدانا الله وإياهم.

وبعد هذا، يبدأ المولىٰ عز وجل في الحديث عن القسم الثاني من الورثة، وهم: الأزواج والزوجات، فيقول سبحانه وتعالىٰ:

﴿۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى الثُّلُثِ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۙ غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

يعني: ولكم ـ أيها الرجال ـ نصف ما تركت زوجاتكم إذا مُتن عن غير ولد وارث منكم، أو من غيركم من بطنها، أو من صلب أولادها، أو أولاد أولادها وإن سفل، ذكرًا كان أو أنثى، واحدًا أو أكثر.

والباقي: لورثتهن من ذوي الفروض والعصبات أو غيرهم.

فإن لم يكن لها وارث غير الزوج، فالباقي لبيت مال المسلمين، ولكم كذلك ـ أيها الرجال ـ ربع ما تركت زوجاتكم، إذا متن عن ولد، بالتفصيل الذي ذكرناه. والباقي لباقي الورثة. وكل ذلك من بعد ﴿وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۚ﴾.

وقد تقدم أن الدَّين مقدم علىٰ الوصية، وبعده الوصية ثم الميراث، وهذا أمر مجمع عليه من بين علماء الأمة. ثم يقول ربنا جل جلاله:

﴿وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ﴾ .

هكذا، يخاطب ربنا الرجال قائلًا: ولزوجاتكم ـ أيها الرجال ـ ربع ما تركتم، إذا متم عن غير ولد وارث، علىٰ النحو الذي تم توضيحه منذ قليل. والباقي لورثتكم. من ذوي الفروض، والعصبات أو غيرهم، فإن لم يكن لكم وارث غير الزوجة، فالباقي لبيت مال المسلمين.

ولهن كذلك ـ أيها الرجال ـ ثُمُنَ ما تركتم، إذا متم عن ولد وارث، حسب البيان السابق. والباقي لباقي الورثة. وكل ذلك من بعد ﴿وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ .

ثم يكون الحديث بعد ذلك في القسم الثالث من الورثة، حسب ما تذكر هذه الآية الكريمة، وهو الكلالة.

حيث يقول سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ﴾.

الكلالة: من الكلال، وهو الضعف والإعياء، وذهاب القوة.، والمراد بها مَن لا والد له ولا ولد.

وحكمه في الميراث علىٰ النحو التاليٰ: إذا مات وله أخ أو أخت من أم، فلكل واحد منهما ـ أي: الأخ والأخت ـ السدس في التركة.

وذلك لأنهم يستحقّون الميراث، بقرابة الأم، والأم لا ترث أكثر من الثلث، فيقسم بينهما علىٰ التساوي.

أما إذا مات وله أخ أو أخت من أب، لكان الإرث بالتعصيب في حالة وجود الذكور وإذا مات وله أكثر من أخ، أو أكثر من أخت، أو منهما من أم.

فالجميع سواء في الثلث، وهو نصيب الأم، فيقسم بينهم علىٰ التساوي، للذكر مثل ما للأنثىٰ.

كل ذلك ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾. وأن لا يكون ضارًّا لورثته في هذه الوصية.

ولاحظوا أن كل ما ذكر من أحكام في هاتين الآيتين، بالنسبة لأصناف الورثة كلهم، التزموا بها ﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾.

يوصيكم الله بالمحافظة عليها، وتنفيذ ما فيها، وعدم الإخلال بأحكامها.

والله عز وجل: ﴿عَلِيمٌ﴾ إذا شرَّع وحكم وقدر، عليم ـ في ذات الوقت ـ بمن حرَّف، أو بدل، أو ظلم ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يُعاجل الظالم بالعقوبة، فلا يغتر مَن حرَّف، أو بدل، أو ظلم.

ثم يعقب ربنا ـ تبارك وتعالىٰ ـ علىٰ هذا التقسيم والتوزيع الإلٰهي للموارث، قائلًا:

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾﴾

يعني: هذه الفرائض والمقادير التي بيَّنها المولىٰ سبحانه، وجعلها الورثة بحسب قربهم من الميت، واحتياجهم إليه، وفقدهم له عند عدمه، هي حدود الله، فلا تعتدوها ولا تجاوزوها، بالتغيير فيها، أو الإهمال لها، أو الإنكار لصلاحيتها.

علىٰ كلٍّ حال: هي أحكام الله التي شرعها لكم، وأنزلها علىٰ رسوله ﷺ، وقد بلَّغها ـ عليه الصلاة والسلام ـ لكم. ثم قال تعالىٰ:

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

أي: مَن يطع الله فلم يزد ولم ينقص، بأية حيلة أو وسيلة في هذه المقادير لبعض الورثة، بل ترك الأمر علىٰ حكم الله، وفريضته وقسمته، فإن الله يجازيه علىٰ ذلك، بأن ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾. ثم قال تعالىٰ:

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾

نعوذ بالله تعالىٰ من ذلك.

أي: يكون جزاؤه ذلك؛ لكونه غيَّر ما حكم الله به، وعاند الله في حكمه.

وهذا التغيير وهذا العناد لا يصدر من المرء، إلَّا بسبب عدم الرضا بحكم الله، والاعتراض علىٰ شرعه، ولهذا يجازيه رب العزة بالإهانة في العذاب المقيم، فليحذر الذين يخالفون شرع الله تعالىٰ.

يقول الحبيب ﷺ: «**مَن قطع ميراثًا فرضه الله ورسوله، قطع الله ميراثه في الجنة**».

وبعد أن بيَّن الله عز وجل لنا أحكام المواريث علىٰ النحو الرائع الذي رأيناه، يبيِّن لنا ـ تبارك وتعالىٰ ـ بعض الأحكام المتعلقة بالرجال والنساء، مما يتعلق بالتشريعات الاجتماعية التي تقوم وتبنىٰ عليها الدولة. حيث يقول رب العزة جل وعلا:

﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥﴾

هذه الآية الكريمة تتحدَّث عن عقوبة المرأة التي تزني.

وكان هذا الحكم، قبل أن تنزل سورة النور، وفيها قوله تعالىٰ:

﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ﴾ [النور: ٢].

وهذا الحكم.. هو أن يطلب الحاكم أو القاضي أو ولي الأمر لإثبات واقعة الزنا أربعة من الشهود، فإن شهدوا عليها بذلك حبست المرأة في البيت حتىٰ وفاتها.

وكان هذا حكمًا مؤقّتاً.. بدليل قوله تعالىٰ: ﴿يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾ أي: حتىٰ يأتي حكم آخر، وكان هذا الحكم الآخر، هو ما جاء بعد ذلك في سورة النور.

هذا. وبالنسبة للرجال، فيقول سبحانه وتعالى:

﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ١٦﴾

يعني: أما مَن يفعل الفاحشة من الرجال سواء الزنا مع النساء، أو اللواط بين الرجلين، فالحكم هنا أن يتم إيذاؤهما بالشتم والتعيير أو الضرب والتقريع.

فإن تابا عن فعلهما هذا، وأصلحا بالإحسان في تصرفاتهما التي تدل علىٰ صدق التوبة منهما، فأعرضوا عنهما، وأوقفوا التوبيخ والضرب عنهما؛ لأن التائب عن الذنب كمن لا ذنب له، حيث ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾.

ويلاحظ جيدًا، أن هذا الحكم كان قبل نزول حد الزنا في سورة النور، كما سبقت الإشارة.

وبمناسبة ذكر توبة الزاني أو اللائط: يخبر ربنا عز وجل عن المستحقين لقبول التوبة فيقول عز من قائل:

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾﴾

أي: يقبل الله توبة الذين يُذنبون ويرتكبون ما لا يليق بهم من الخطيئة، ثم يندمون علىٰ ذلك، ويُقلعون عن العود إليه، ويتوبون إلىٰ الله تعالىٰ فورًا، ويُقلعون عن العود إليه، قبل أن يأتيهم الموت، والدخول في حالة الغرغرة وسكرات الموت.

هؤلاء يتوب الله عليهم، ويصفح عنهم، ويغفر لهم، حيث كان الله عليمًا بعزمهم علىٰ التوبة، وصدقهم فيها، حكيمًا بفتح باب التوبة والمغفرة لهم.

وحيث ذكر ربنا ـ تبارك وتعالىٰ ـ المستحقين لقبول التوبة، فإنه يعقب عليه ببيان مَن لا يستحقونها، ولا يسعدون بها، إذْ يقول جل وعلا:

﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾

أي: لا يقبل الله تعالىٰ توبة من العصاة الذين يعملون السيئات، ولا يتوبون منها ويقلعون عنها، حتىٰ يأتيهم الموت، ولا يقبل كذلك إيمانًا من الكفار الذين يُصرون علىٰ الكفر، ولا يتوبون منه، ولا يقلعون عنه حتىٰ يأتيهم الموت.

وذلك: لأن العصاة لم يتوبوا، والكفار لم يؤمنوا إلَّا عند معاينة ملك الموت، ومعرفتهم بسوء النهاية، فيقول الواحد منهم: ﴿إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾.

هؤلاء وهؤلاء أعددنا لهم يوم القيامة عذابًا شديدًا أليمًا موجعًا.

هذا.. وبعد أن نفَّر المولىٰ عز وجل من عادات أهل الجاهلية بخصوص اليتامىٰ وأموالهم، وينفِّر الآن ـ كذلك ـ من عادات أهل الجاهلية بخصوص النساء وأموالهن، وينهىٰ عنها، وذلك كله من الأمور الاجتماعية التي لا ينبغي أن تكون في الدولة الإسلامية. حيث يقول الله تعالىٰ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾

وهذا: نهي من الله تعالىٰ أن يحدث في الدولة الإسلامية ما كان يحدث للمرأة في الجاهلية، إذ كانوا إذا مات زوجها يرثها أولياؤه.. وإن شاءوا تزوجها بعضهم، أو زوجوها مَن أرادوا، أو لا يزوجونها أصلًا، حيث إنهم كانوا أحق بها من نفسها، ومن أهلها.

﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ۚ﴾.

وهذا: نهي من الله تعالىٰ كذلك للرجال عن حبس النساء، والتضييق عليهن، وإكراههن علىٰ المعيشة رغبة في الوصول بالمرأة ودفعها بذلك إلىٰ طلب الخلع، والتنازل عن حقوقها أو بعضها، إلَّا في حالة أن يكون سوء العشرة من جهة الزوجة، فيباح في هذه الحالة طلب الخلع.

ثم بعد ذلك يخاطب ربنا ـ تبارك وتعالىٰ ـ الرجال الذين يُسيؤون في العشرة والحياة الزوجية إلىٰ نسائهم.. فيقول سبحانه وتعالى:

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

أي: عاشروا نساءكم، وعاملوهن بما لا ينكره الشرع ولا المروءة.. من الإحسان في النفقة، والطيب من القول، وبسط الوجه والمؤانسة.

فإن كرهتموهن لسوء خلق أو قبح وجه أو غير ذلك، فلا تفارقوهن، واصبروا عليهن.. فلعل الله يَدَّخر لكم فيما تكرهونه وتصبرون عليه خيرًا كثيرًا عما تتوقَّعونه فيما تحبون.

ثم يبيِّن ربنا ـ عز وجل ـ حكمًا آخر من أحكام الإسلام في الأحوال الشخصية، فيقول سبحانه وتعالىٰ:

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾﴾

يعني: إن أراد الواحد منكم يا معشر المسلمين تطليق امرأة والزواج بأخرى، وقد أعطيتم مَن أردتم طلاقها مالًا كثيرًا علىٰ سبيل المهر والصداق لها، فلا تأخذوا وتستردوا منها شيئًا من هذا المال، حيث لا يحل لكم ذلك.. ولو فعلتم ذلك وأخذتم منه شيئًا كان هذا ذنبًا واضحًا، وإثمًا فاحشًا.

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾

أي: لا يليق بكم أن تأخذوا منهن شيئًا إذْ كيف، وبأيّ وجه تأخذونه، وقد حدث بينكم ما حدث من الخلوة والجماع وغير ذلك مما يكون بين الزوجين..؟ كما أنه كيف يأخذ الواحد منكم ما أعطاه لامرأته من المهر، وقد أخذ الله لهن عليكم عهدًا وميثاقًا شديدًا مقتضاه: الإمساك بمعروف، أو التسريح لهن بإحسان..؟

يا الله.. !! منتهىٰ الشفقة بالمرأة المسلمة، والحفاظ علىٰ حقوقها.

ونأتي الآن إلىٰ حكم جديد من أحكام الإسلام يتعلق بالنساء أيضًا، حيث يقول ربنا تبارك وتعالىٰ:

﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾

وهذا شروع من المولىٰ سبحانه في بيان مَن يحرم نكاحهن من النساء.

وفي هذه الآية تحريم ونهي عن نكاح زوجة الأب وإن علا.

أي: الأب والجد ووالد الجد.. إلخ. وسواء أكان الأب من النسب، أو من الرضاع فالحكم واحد. وأما ما سبق وحدث قبل هذا التشريع وهذا الحكم، فإنكم لا تؤاخذون به.

والسبب في ذلك. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾.

أي: أن زواج الأبناء لزوجات الآباء ـ كما كان في الجاهلية ـ أمرًا قبيحًا وممقوتًا من الله تعالىٰ، حيث لم يُرخص به أبدًا لأمة من الأمم.

وقد اجتمعت فيه مراتب القبح الثلاث.. وقد أشار إليها المولى سبحانه في الآية.

حيث إن قوله: ﴿فَٰحِشَةً﴾ يشير إلىٰ مرتبة القبح العقلي، وقوله: ﴿وَمَقْتًا﴾ القبح الشرعي، وقوله: ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ القبح الواقعي.. ومَن اجتمعت فيه هذه المراتب: فقد بلغ أقصىٰ درجات القبح.

وبعد أن بيَّن الله تعالىٰ حرمة نكاح نساء الآباء وقبَّحه ونفَّر منه ونهى عنه، يذكر سبحانه وتعالىٰ النساء المحرمات الباقيات، فيقول عز وجل:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾

وهؤلاء سبع من النسب: يحرم علىٰ الرجل الزواج بهن، وهن:

١ ـ **الأمهات**: والجدات من قبل الأم أو الأب.

٢ ـ **البنات**: وبنات الابن وبنات البنت.

٣ ـ **الأخوات**: شقيقات، أو لأم، أو لأب.

٤ ـ **العمات**: شقيقات للأب، أو لأم، أو لأب.

٥ ـ **الخالات**: شقيقات للأم، أو لأم، أو لأب.

٦ ـ **بنات الأخ**: الشقيق، أو لأم، أو لأب.

٧ ـ **بنات الأخت**: الشقيقة، أو لأم، أو لأب.

أيضًا: يحرم علىٰ الرجل الزواج من سبع من النساء للسبب، وهن:

﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ﴾.

وهؤلاء المذكورات في الآية ست من النساء فقط يحرم علىٰ الرجل الزواج بهن للسبب، بقيت واحدة يأتي ذكرها في الآية التالية:

وهؤلاء الأصناف الستة من النساء المحرمات للسبب.. هن:

١، ٢ ـ ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾.

ويقول الحبيب المصطفى ﷺ: «**يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب**».

٣ ـ ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ﴾ دخلتم بهن، أو عقدتم عليهن فقط؛ حيث إن العقد علىٰ البنات يحرم الأمهات، وليس العكس.

٤ ـ ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾ الآية.

أي: بنت المرأة من غير زوجها، إذا كانت في حضانته، وقد دخل بأمها، أو عقد عليها، ولا تزال في ذمته، فإن لم يكن قد دخل بأمها، أو عقد فقط وطلقها قبل الدخول، فلا حرج عليه أن يتزوجها.

٥ ـ زوجة الإبن.

٦ ـ والأختين، حيث يحرم أن يجمع الرجل بين الأختين، إلَّا ما قد سلف وحدث قبل تشريع هذا التحريم.. فقد عفا الله عنه.

لاحظوا الكرم الإلٰهي العميم، إذْ يذكر المولى عفوه العام ورحمته الشاملة، بعد عفوه الخاص. حيث يقول بعد أن بيَّن عفوه عما سلف من الجمع بين الأختين، الذي كان يحدث من البعض في الجاهلية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾.

أي: غفر الله لكم في كل ما كنتم تفعلونه قبل أن يُنزل لكم هذا التشريع.

ورحمكم ـ كذلك ـ بهذا الشرع، الذي لم يحرم عليكم إلَّا ما في تحريمه رحمة بكم، وحكمة بالغة تستفيدون بها في دنياكم وآخرتكم.

وبقيت واحدة يحرم على الرجل الزواج منها للسبب أيضًا، وهي المذكورة في قوله عز وجل:

﴿۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾

أي: وحرم عليكم أيضًا المحصنات من النساء، وهنَّ ذوات الأزواج، بسبب أنهن أحصنَّ فروجهن بالزواج، ولا يحل لكم أن تنكحوهن إلَّا بعد مفارقة أزواجهن لهن.

غير أنه يحل لكم من ذوات الأزواج النساء اللاتي ملكتموهن بالسبي وأزواجهن في دار الحرب، وذلك بعد استبراء أرحامهن.

هذا.. وبعد أن ذكر الله تعالى المحرمات من النسب، أو السبب.. قال عز وجل: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ﴾.

أي: هذا ما كتبه الله عليكم وفرضه، فالزموا فرضه، ولا تخرجوا عن حدوده، واتبعوا ما شرعه لكم، وفرضه عليكم.

وأما ما عدا هذه المذكورات من النساء المحرمات للنسب أو للسبب، فهذا حكمه: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ﴾.

يعني: أنه حلال لكم أن تتزوَّجوا من النساء الباقيات غير الأصناف التي ذكرت ما شئتم من الزوجات إلى الأربع، بشرط أن تدفعوا إليهن من أموالكم مهورهن، وأن تقصدوا بهذا الزواج الإحصان والعفاف، وليس السفاح وهو الزنى.

ويلاحظ أن ذكر الأموال هنا؛ للتدليل على أن النكاح لا يكون إلَّا بمهر، وأن يكون الزواج للإحصان؛ لئلا تضيعوا أموالكم فيما لا يحل، فتكون الخسارة لكم في دينكم ودنياكم.

وعلى ذلك: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ﴾

أي: نكحتموه منهن فآتوهن مهورهن مقابل ذلك النكاح والاستمتاع.

وذلك كقوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: ٢١].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء: ٤].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٢٢٩].

ومعنىٰ هذا: أن هذه المهور فريضة، فرضها الله عليكم عند الزواج من النساء.

ثم يقول ربنا تبارك وتعالىٰ بعد ذلك: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾.

أي: أنه بعد أن استقر أمر هذه الفريضة، لا إثم عليكم فيما تراضيتم به فيما بينكم بخصوص هذا المهر، كأن تتنازل المرأة عن بعض مهرها، أو عن كله لزوجها، أو أن يزيد الزوج في المهر لزوجته، عما اتفقا عليه أولًا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ .

أي: عليمًا بما خلق، عليمًا بما شرع لخلقه، حكيمًا فيما خلق، حكيمًا فيما شرع وفرض.

ومن ذلك ما شرعه من عند النكاح، الذي به تُحفظ الأنساب ويبقىٰ النسل، وتسعد المرأة والرجل، وما فرضه من المهور والإحصان، إعزازًا للمرأة، وصيانة وطهراً للمجتمع.

وبعد أن بين ربنا عز وجل للرجال ما حرم عليهم من النساء، وكذلك بعد أن بيَّن ما أحل للمستطيع منهم أن يتزوجهن من النساء الحرائر، بقي فريق من الرجال لا يستطيع لعدم قدرته المالية أن يتزَّوج من هؤلاء النساء الحرائر، فماذا يفعل هذا الفريق، وهو يرغب في النكاح، وإحصان نفسه..؟ يقول الله تعالىٰ لهؤلاء:

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

أي: له في هذه الحالة أن يتزوج من الإماء المؤمنات اللائي يملكهن المؤمنون.

ولأن موضوع الإيمان هذا لا يعلم حقيقته إلَّا الله تعالىٰ وحده، فقد قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ﴾.

أي: فلينكح بعضكم من بعض الفتيات المؤمنات اللاتي يعلم الله وحده إيمانهن؛ حيث إن هذا الإيمان هو أشرف وجوه التناسب بينكم، ولا ينبغي أن يكون الرق بالنسبة لهن ـ مع وجود الإيمان ـ منفرًا لكم عن الزواج منهن.

ومع هذا فهناك أمور هامة ينبغي مراعاتها في هذا الزواج، نراها في قول ربنا عز وجل، حيث يقول:

﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ﴾.

وهنا نرىٰ: أن الله عز وجل قد اشترط علىٰ مَن لم يستطع الزواج من النساء الحرائر، ورغب في الزواج من الإماء المؤمنات عدة شروط:

أولها: أن يكون هذا النكاح بموافقة أهلها وإذنهم، والأهل هنا هو سيدها ومالكها ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾.

ثانيها: أن يدفع مهرها علىٰ الوجه المتعارف عليه بينهم، والذي به تطيب النفوس من غير مماطلة أو تسويف أو نقصان ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

ثالثهما: أن يكون زواجًا شرعيًا بهدف الإحصان والعفاف، وليس بغرض الزنا جهرًا أو سرًّا ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ﴾.

وبهذا: فرض الله في نكاح الإماء، مثلما فرض في نكاح الحرائر من الإحصان والعفة لكل من الزوجين.

كما رفع الإسلام شأن الفتيات المؤمنات، وساوى بينهن وبين الحرائر، وجعل التفاضل بالإيمان، إذ رُبَّ أَمَة أكمل إيمانًا من حرة، فتكون عند الله أفضل منها ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ [الحجرات: ١٣].

ومع ذلك فإذا زنت الأمة بعد هذا الإحصان، وبعد هذا التكريم: فعليها العقاب.

يقول عز من قائل:

﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ﴾.

يعني: أن الإماء إذا زنين بعد إحصانهن بالزواج، فعليهن نصف ما علىٰ المحصنات الحرائر من العذاب، أي: العقاب، وهو الحد الشرعي للزنىٰ.

وإذا كان عقاب الحرة التي لم تتزوج هو الجلد مائة جلدة، لقوله تعالىٰ: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢].

فإن حدَّ الأَمة: هو النصف من ذلك. أي: خمسين جلدة.

ثم يعود ربنا سبحانه وتعالىٰ إلىٰ موضوع الزواج من الإماء، فيبيَّن لنا ـ عطفًا منه تبارك وتعالىٰ علينا ـ أن هذه الإباحة للزواج من الإماء بالشروط المذكورة هي لمن خاف علىٰ نفسه الوقوع في الزنا، وشقَّ عليه الصبر عن الجماع، وخاف مضرة هذه المجاهدة لفداء غريزته. حيث يقول: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾.

يعني: أن نكاح الإماء رخصة لمن خاف الإثم أو الضرر، الذي تؤدي إليه غلبة الشهوة، ومغالبتها.

ومع إباحة هذه الرخصة، فإن عدم الأخذ بها أفضل، حيث يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

أي: وصبركم عن نكاح الإماء، خير لكم من نكاحهن. وهذا حث وتشجيع علىٰ عدم استعمال هذه الرخصة، إلَّا في أضيق الحدود.

والسبب في ذلك ما فيه من تربية قوة الإرادة، وتغليب العقل علىٰ عاطفة الهوىٰ، وعدم تعريض الولد للرق، وخوف فساد أخلاقه.. إلىٰ غير ذلك من أوجه الضرر.

ورحم الله عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث قال: «إذا نكح العبد الحرة، فقد أعتق نصفه، وإذا نكح الحر الأَمة، فقد أرقَّ نصفه».

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ نعم، والله غفور لمن صدرت منه الهفوات، وتاب عن الزلات. وهو سبحانه رحيم يرفع عن عباده ما فيه مشقة عليهم، ولا يؤاخذهم بعقوبة علىٰ ما لا يستطيعونه.

بعد هذا البيان الدقيق والتفصيل الوافي، في أمور التشريع.. يبيِّن ربنا عز وجل: أن له إرادة، وللكفار والفساق إرادة تعارضها تمامًا.

فإرادته تعالىٰ أن يبيَّن ما فيه سعادتنا في الدنيا والآخرة، من الحلال والحرام، علىٰ نحو ما تمَّ ذكره وبيانه منذ قليل، وأن يدلنا ـ كذلك ـ علىٰ الطرائق الحميدة، التي اتبعها مَن قبلنا من الأنبياء والمرسلين والشهداء والصالحين، وأن يطهرنا من ذنوبنا

بتوبته علينا، وأن يُظهر لنا حكمته في شرعه وقدره وأقواله وأفعاله سبحانه وتعالىٰ.

أما إرادة الكفار والفساق، ممن يتبعون الشهوات فهي أن تنحرف انحرافًا كبيرًا عن الصراط المستقيم. كل هذا.. في قوله تعالىٰ:

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾

والمعنىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ ما هو خفي عليكم من مصالحكم، وأفضل أعمالكم بما شرعه لكم من الأحكام، في هذه السورة وغيرها.

﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ من الأنبياء والصالحين؛ لتهتدوا بها في دينكم وحياتكم اقتداءً بهم وبسلوكهم وسيرتهم.

﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يوفقكم للتوبة من ذنوبكم وأخطائكم، وضعفكم.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ عليم بمصالح عباده، حكيم فيما شرع لهم.

هذا ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾أي: في الوقت الذي يريد الله سبحانه وتعالىٰ أن يُزكي نفوسكم بما شرع لكم، وأن يطهركم بما أمركم به ونهاكم عنه، ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ من الفساق، والفجرة والكفار ﴿أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾أي: أن تميلوا عن الحق إلىٰ الباطل، وعن الهوىٰ إلىٰ الضلال، وتنحرفوا عما أنتم فيه انحرافًا لا تقوم لكم بعده قائمة. ثم قال تعالىٰ:

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾

يا أيها الناس، يا أهل الدنيا كلها ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ في شرائعه، وأوامره ونواهيه، ولم يجعل عليكم في الدين من حرج أو مشقة، ومن ذلك: ما أباح لكم من الرخص، التي تقتضيها ضرورات حياتكم.

﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ لا يصبر عن الشهوات، ولا علىٰ مشاق الطاعات، ولهذا خفَّف ـ سبحانه ـ عليه بما يناسب ضعفه.

وقد رحم الله عز وجل عباده، حيث لم يُحرِّم عليهم إلَّا ما في إباحته ضرر كبير، ومفاسد شديدة لهم.

عرفنا ـ فيما سبق ـ بيان المولى سبحانه لكيفية معاملة اليتامىٰ وإيتاء أموالهم إليهم عند الرشد، وكذلك: عدم دفع الأموال إلىٰ السفهاء.

ووجوب دفع المهور إلىٰ النساء، والإنكار علىٰ مَن يأخذها منهن بوجه من الوجوه، وأيضًا وجوب إعطاء شيء من أموال اليتامىٰ إلىٰ أقاربهم عند حضورهم قسمة هذا المال.

ولمَّا كان هذا في الأموال، فإن الله عز وجل يذكر قاعدة عامة للتعامل في الأموال بين الناس، تطهيرًا للأنفس في جمع المال، المحبوب لها. وذلك في قوله تبارك وتعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٢٩﴾

وبهذا ينهىٰ الله عباده المؤمنين عن أن يأكلوا أموال بعضهم البعض بالباطل،أي: الحرام. وهو الذي يأتي من جميع المكاسب غير الشرعية كالنهب، والسرقة، والغصب، والرشوة، والربا، والقمار.. إلىٰ غير ذلك من كل ما يشبهه.

ويدخل في ذلك الحرام أيضًا سائر صنوف الحِيَل، حتىٰ وإن ظهرت في صورة الحكم الشرعي، فإنه مما لا يخفىٰ علىٰ الله نية صاحبها في أنه يريد أن يحتال.

ولمَّا كان أكل أموال الناس بينهم بالباطل فيه نوعُ هلاك، فقد عقَّب عليه وقرن به ـ سبحانه وتعالىٰ ـ النهي عن هلاك آخر أكبر وأعظم.

حيث قال: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ﴾.

يقول الإمام النسفي رحمه الله: هذا النهي يدخل فيه معانٍ خمسة، كلُّها محرَّم:

الأول: ولا تقتلوا مَن كان من جنسكم من المؤمنين؛ لأن المؤمنين كنفس واحدة.

الثاني: لا يقتلنَّ أحدكم نفسه،أي: لا ينتحر.

الثالث: لا تقتلوا أنفسكم بظلم بعضكم بعضًا في موضوع الأموال؛ حيث إن ظالم غيره، كمهلك نفسه.

الرابع: لا تتَّبعوا أهواء أنفسكم، فتقتلوها.

الخامس: لا ترتكبوا ما يوجب القتل.

ويلاحظ: أن الآية الكريمة تحمل كل هذه المعاني. والله أعلم.

ثم يقول ربنا جل شأنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾.

يعني: إن الله بكم يا أمة محمد ﷺ، كان بكم رحيمًا؛ ولذلك: نبَّهكم على ما فيه صيانة أموالكم، وبقاء أبدانكم. وبعد ذلك يقول ربنا تبارك وتعالىٰ:

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾

أي: ومَن يرتكب فعل هذا المحرم المذكور.

قيل: من قتل النفس؛ لأنه أقرب مذكور.

وقيل: من قتل النفس، وأكل الأموال بالباطل؛ لأنهما مذكوران في آية واحدة.

وقيل: من كل ما نهىٰ الله عنه من أول السورة إلىٰ هنا.

كل ﴿مَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا﴾ علىٰ الغير ﴿وَظُلْمًا﴾ للنفس وللغير ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾أي: ندخله نارًا مخصوصة، شديدة العذاب.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾أي: أن إدخاله النار، وتعذيبه فيها.. سهل علىٰ الله تعالىٰ، **وفي هذا**: تهديد شديد، ووعيد أكيد، فليحذر منه كل عاقل لبيب.

أحبابنا في الله تعالىٰ.. كما وضع الله عز وجل وبيَّن قاعدة عامة للتعامل بين الناس في الأموال، يضع ـ سبحانه وتعالىٰ ـ كذلك قاعدة هامة بالنسبة للذنوب والخطايا التي يرتكبها الإنسان. وذلك في قوله تبارك وتعالىٰ:

﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾

يعني: إذا اجتنبتم ارتكاب الكبائر من الذنوب وابتعدتم عنها، وفعلتم الطاعات؛ امتثالًا وطاعة لله تعالىٰ، فيما نهاكم عنه وأمركم به، كفَّر الله عنكم وغفر لكم ما وقعتم فيه ـ بحكم بشَّريتكم ـ من صغائر الذنوب والخطايا.

كذلك يدخلكم الجنة، وذلك لقوله تبارك وتعالىٰ:

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

هذا.. وبعد أن نهىٰ الله عباده في الآية المتقدمة عن أكل الأموال بالباطل، وعن قتل النفس، وبعد أن أمرهم ـ عن طريق الترغيب ـ بعدم ارتكاب الكبائر، ينهاهم عز وجل عما يسهل عليهم تركه، حيث يقول جل شأنه:

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾

وفي هذا دعوة للتسليم بقدر الله تعالىٰ وحكمته، والرضا بعدله ومشيئته؛ حيث فضَّل البعض علىٰ البعض ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النحل: ٧١].

كما أن فيه نهيًا عن التمني، المؤدي إلىٰ الحسد، بصفة عامة.

ويدخل فيه نهي الرجال أن يتمنوا ما خص الله به النساء، وكذلك نهي النساء أن يتمنين ما خص الله به الرجال.

ومن ذلك: ما خصَّ الله به النساء في الإرث، وما خص به الرجال فيه.

حتىٰ وإن كان سبب نزول الآية ـ كما أخرجه الإمام أحمد في مسنده ـ من أن أم سلمة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله يغزو الرجال ولا نغزو، ولنا نصف الميراث، فأنزل الله هذه الآية.

أقول: حتىٰ وإن كان سبب النزول في أمنيات خاصة، فإن العبرة، كما يقول العلماء، بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، مما يساعد علىٰ دخول ما ذكرناه في معنى الآية الكريمة.

ولذلك: يبين الله تعالى أن كلًّا من الرجال والنساء مجزي علىٰ عمله ونيته بما يستحقه ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ﴾.

وأيضًا: يأمر الجميع بدلًا من هذا التمني أن يتوجَّهوا إليه وحده، وأن يسألوه من فضله، حيث يقول: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ أي: اسألوه يُعطكم، فإنه واسع الفضل، وتفضيله بعلم، وعطاؤه بعلم، فلا تعترضوا علىٰ الله تعالىٰ في فعل، أو في حكم.

وبمناسبة الكلام السابق عن عدم أكل أموال الناس بالباطل، وعدم تمنِّي ما فضَّل الله به بعض الناس علىٰ بعض، وعدم تمنِّي النساء ما للرجال والعكس، تأتي قاعدة أخرىٰ توضحها هذه الآية الكريمة التالية:

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾

أي: لكل مَن مات من الرجال أو النساء جعلنا موالي - أي: ورثة - يُعطون تركته بطريق الميراث، من بني عمّ، وإخوة، وسائر العصبات، يرثون ما تركه الوالدن والأقربون، كل حسب نصيبه المفروض في شرع الله تعالىٰ.

كذلك: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنه: هذه نزلت في الذين آخىٰ بينهم رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار، لمَّا قدم المهاجرون المدينة، وكانوا يتوارثون بهذه المؤاخاة، دون النسب والرحم. فلما نزلت: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ نسختها.

وقيل: نسختها آية الأنفال ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٥].

ثم يقول تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾. فهو عالم الغيب والشهادة.

وهذا يفيد أنه عالم بكم، شهيد علىٰ عقودكم فوفُّوا بها، وقوموا بالتزاماتها. وذلك أبلغ وعدٍ ووعيد، منه عز وجل.

فإذا كان الله شهيدًا علىٰ عقودنا، فإنه سبحانه يأجر علىٰ الوفاء، ويعاقب علىٰ الغدر.

أيها المسلمون الكرام.. سعد بن الربيع رضي الله عنه أحد الصحابة الأخيار، الذين شهدوا بيعة العقبة، وكان أحد نقباء الأنصار فيها، هذا الصحابي دب الخلاف - ذات يوم - بينه وبين زوجته السيدة حبيبة بنت زيد، فلما تعالت وترفعت عليه لطمها بيده علىٰ وجهها، فغضبت منه، وذهبت إلىٰ أبيها، وهنا أخذها أبوها، وذهب بها إلىٰ رسول الله ﷺ، وقال له: إن سعدًا لطم كريمتي؟ فقال النبي ﷺ: «**لتقتص من زوجها**»، وهمت حبيبة مع أبيها لتنصرف، وتقتص من زوجها بناءً علىٰ حكم النبي ﷺ، وهنا قال النبي ﷺ: «**انتظروا. فهذا جبريل أتاني**»، ونزل جبريل في هذه اللحظة بحكم الله تعالىٰ، في قوله تبارك وتعالىٰ:

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾

وهنا قال النبي ﷺ لهما: «**أردنا أمرًا، وأراد الله أمرًا، وما أراد الله خير**».

وبهذا قررت هذه الآية الكريمة: أن الرجل هو القيِّم على المرأة، فهو رئيسها والحاكم عليها، والمسئول عنها إذا احتاجت، فهو راعيها، وإذا اعوجَّت فهو مؤدِّبها.

وذلك لسببين:

الأول: لفضل الرجل على المرأة ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في الخصائص والصفات، التي هي نتيجة اختلاف الجسم والوظيفة، مما يترتَّب عليها اختلاف الأحكام والتكاليف، لكل منهما.

الثاني: بسبب الإنفاق ﴿وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ﴾ إذْ عليه دفع المهر، وواجب النفقة، وهذا هو شرع الله وحكمه.

والنساء أمام شرع الله هذا صنفان:

الصنف الأول: يقول عنهن رب العزة: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ﴾.

وعلى ذلك ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ من الزوجات ﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾ أي: راضيات بحكم الله، مطيعات لأزواجهن في غير معصية، قائمات بما عليهن لهم.

وفي الوقت ذاته ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ أي: حافظات لغيبة أزواجهن، فهن يحفظن ما يجب عليهن حفظه في حال غيبتهم، من الفروج، والبيوت، والأموال، ويدخل في ذلك حفظهن لأسرار أزواجهن في غيبتهم.

كل ذلك: ﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ﴾ **أي:** بسبب حفظ الله لهن، وتوفيقه لهن لهذه المحافظة، حيث صبَّرهنّ وأعانهنّ عليها.

وهذا الصنف من النساء.. يقول عنهن الحبيب المصطفى ﷺ:

«إذا صلَّت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها، قيل لها ادخلي الجنة من أي الأبواب شئت».

وأما الصنف الثاني بالنسبة لشرع الله وحكمه في موضوع القوامة، فيقول عنهن رب العزة جلَّ وعلا: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾.

أي: والنساء اللاتي تظنون أنهن يترفَّعن علىٰ أزواجهنّ تكبرًا عليهم، ويُسِئْنَ العشرة - بسبب ذلك - معهم، وتريدون إصلاح حالهن، فلكم لإصلاح هذا الوضع من الوسائل ثلاث:

الأولىٰ هي: الوعظ ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ بعتاب رقيق، وكلام شفيق، من نحو: لي عليكِ حق، فاتق الله فيه، واحذري غضبه وعقوبته. إلىٰ غير ذلك، مما يعرف الزوج أنه يؤثر في زوجته، ويُساعد في إصلاح حالها.

فإن لم تثمر هذه الوسيلة، وعلم يقينًا نشوزها عليه، فله حينئذٍ أن يستعمل الوسيلة...

الثانية وهي: الهجر ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ﴾ أي: لا تُدخلوهن تحت الغطاء معكم، وهو كناية عن الجماع، أو هو أن يوليها ظهره في المضجع، إذ لم يأمر الله تعالىٰ بهجرانهن عن المضاجع، بل قال: ﴿فِي ٱلْمَضَاجِعِ﴾.

وعلىٰ هذا، فالهجران يكون في البيت، وفي الفراش.

فإن لم تثمر هذه الوسيلة، فقد تأكَّد من نشوزها عليه، فله حينئذ أن يستعمل الوسيلة...

الثالثة وهي: الضرب ﴿وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ ضربًا غير مبرح، أي: ضربًا رقيقًا لا يكسر عظمًا، ولا يعيب عضوًا، ولا يترك أثرًا.

وإلىٰ هنا، يقول رب العزة جلَّ جلاله: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾.

أي: فإن أطعنكم، وعدلن عن عوجهن وترفعهن - عند أية وسيلة من هذه الوسائل الثلاث، أو بعد هذه الوسائل الثلاث - فقد تحقَّق المراد، وليس لكم عليهن استعمال أي لون من الإيذاء، إذًا ﴿فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ لتتعرضوا لهن بالأذىٰ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾.

نعم، أيها المؤمنون: إن علت أيديكم عليهن - بعد صلاح حالهن - فاعلموا أن قدرة

الله عليكم أعظم من قدرتكم عليهن. وعلىٰ ذلك فاجتنبوا ظلمهن، واحذروه أن يعاقبكم إن ظلمتموهن.

هذا.. وبعد أن عالج المولىٰ سبحانه جانبًا من الخلافات الزوجية، كان السبب فيه من جانب المرأة، يعالج الرؤوف الرحيم؛ جانبًا آخر يكون الخلاف منهما معًا.

حيث يقول الله عز وجل:

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾

والخطاب هنا لأولياء أمور المسلمين، وقضاتهم.

والمعنىٰ: إن علمتم أيها الولاة والقضاة نزاعًا وخلافًا بين الزوجين، ولم تعرفوا من المتسبب في هذا الشقاق، ﴿فَٱبْعَثُوا۟﴾ إليهما أي: الزوجين ﴿حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ للإصلاح بينهما، حيث إن الأقارب أعرف ببواطن الأمور وأحفظ للأسرار، وأكثر حرصًا علىٰ الإصلاح، ونفوس الزوجين أسكن إليهم، بشرط أن يكونا ـ أي الحكمين ـ صالحين، عاقلين، حكيمين، عدلين.

كما أنهما ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا﴾ لذات البين، وكانت نيتهما صادقة في الإصلاح، ﴿يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ أي: يوفق الله بين هذين الزوجين، ببركة هذين الحكمين، وصدق نيتهما، وإخلاصهما في مسعاهما، وبذلك يزول عن هذين الزوجين الشقاق والخلاف، ويؤلف الله بين قلبيهما ويبدلهما بهذا النزاع.. ألفة ومودة ومحبة.

ثم يقول الحكيم الخبير: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ أي: عليمًا بإرادة الحكمين، وما في نيتهما، خبيرًا بالظالم والمظلوم من الزوجين.

وفي هذا وعد للمخلص من الحكمين بالخير علىٰ إخلاصه، ووعد للمظلوم من الزوجين علىٰ صبره علىٰ الآخر، وتنازله عن حقه.

كما فيه من الوعيد لغير المخلص من الحكمين بالعقاب علىٰ عدم صدقه في الإصلاح وعدم صفاء نيته، ووعيد ـ كذلك ـ للظالم من الزوجين علىٰ ظلمه للآخر، مستغلًا براعة عرضه لحجته، وضعف الطرف الآخر في مواجهته.

وبعد أن بيَّن ربنا عز وجل الأحكام المتعلقة بالمال، والنفس، والمرأة.. وكذلك بعد أن بيَّن الأحكام المتعلقة بالزوجين، وخلافاتهما.

يبدأ في بيان الأحكام المتعلقة بالوالدين والأقارب ونحوهما، مصدِّرًا ذلك بما يتعلق بحقوق الله تعالىٰ، التي هي آكد الحقوق وأهمها وأعظمها. حيث يقول تبارك وتعالىٰ:

﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾

يأمر ربنا ـ سبحانه وتعالىٰ ـ عباده بعبادته وحده لا شريك له، فهو: الخالق، الرازق، المنعم، المتفضل علىٰ خلقه. لذا فهو المستحق أن يوحِّدوه.

﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ هذا هو الأمر الأول والواجب الأهم، وهو معرفة الله، وتوحيده، وطاعته، وعدم الشرك به ـ في شأن ألوهيته وربوبيته ـ بشرًا، أو حجرًا، أو كونًا، أو طبيعة، أو مجتمعًا، أو غير ذلك.

يقول المصطفى ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه:

«أتدري ما حق الله علىٰ العباد..؟».

قال: الله ورسوله أعلم.

قال: **«أن يعبدوه، ولا يُشركوا به شيئًا»**.

ثم قال: **«أتدري ما حق العباد علىٰ الله إذا فعلوا ذلك؟ أن لا يُعذبهم»**.

قالوا: وعلامات العبودية الصادقة أربعة: الوفاء بالعهود، والرضى بالموجود، والحفظ للحدود، والصبر علىٰ المفقود.

﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ أي: وأحسنوا بهما ولهما إحسانًا ليس فوقه إحسان، في القول والفعل والبر بهما، ولين الجانب معهما، والإنفاق عليهما عند الاحتياج.

﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: أحسنوا بكل مَن كان بينكم وبينه صلة قرابة، من: أخ، أو أخت، أو عم، أو خال، أو خالة، أو غير ذلك.

﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ يعني: وأحسنوا باليتامىٰ والمساكين.

﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: وأحسنوا بالجار، الذي قرب منكم جواره، أو بالجار الذي قرب منكم نسبًا.

﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ أي: وأحسنوا بالجار، الذي بَعُد جواره، أو الجار الأجنبي عنكم قرابة.

﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ أي: وأحسنوا بالصاحب الذي يرافقكم في سفر أو يشارككم في تجارة أو طلب علم، وتدخل في ذلك: الزوجة، بالطريق الأولىٰ.

﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: وأحسنوا إلىٰ الغريب، أو الضيف.

﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ أي: وأحسنوا إلىٰ عبيدكم وإمائكم، ويدخل في ذلك: الأمر بالإحسان إلىٰ خدمكم، وعمَّالكم.

وبطبيعة الحال سيوجد في الناس مَن لا يُعير هذه الأوامر اهتمامًا، أَنفةً وغرورًا.

وهذا يطرده الرحمٰن الرحيم من رحاب محبته.

يقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾.

أي: لا يحب ربنا عز وجل: المتكبر الذي يأنف عن قرابته ويبتعد عنهم، ويتنصل منهم، ولا يلتفت إليهم بمودته وعطفه وإحسانه.

وكذلك المتكبر علىٰ جيرانه، وأصحابه، وخدمه، وعماله، كما لا يحب ربنا عز وجل المتفاخر الذي يعدِّد مناقبه، وأمجاده، ومواهبه، و... و... إلخ، كبرًا وتيهًا وغرورًا علىٰ غيره من الناس.

وذلك؛ لأن المختال الفخور يرىٰ نفسه خير من الناس، فهو في نفسه كبير، وهو عند الله حقير، وعند الناس بغيض، إذْ يفخر علىٰ الناس بما أعطاه لله من نعمه، وهو قليل الشكر لله علىٰ ذلك.

وقد وصف ربنا عز وجل هؤلاء بالبخل، وأكثر منه، حيث قال تعالىٰ عنهم:

﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾﴾

هؤلاء يجحدون نعم الله عليهم، ولا يُظهرونها لا في العطاء، ولا في الشكر عليها.

بل يبخلون بما في أيديهم، وبما في أيدى الناس، فيأمرونهم بأن يبخلوا به كرهًا منهم للسخاء. ولذا قيل:

البخيل: الذي يأكلُ بنفسه، ولا يُؤكِلُ غيره.

والشحيح: الذي لا يأكل بنفسه، ولا يُؤكِلُ غيره.

والسخي: الذي يأكل بنفسه، ويُؤكل غيره.

والجواد: الذي لا يأكل، بل يُؤكل غيره؛ إيثارًا.

فهم بخلاء أشحاء، يكرهون الجود والسخاء.

وفوق ذلك: فهم يكتمون ويُخفون ما أنعم الله عليهم به من المال، وسعة الحال، والصحة، و... وغير ذلك.

هذا.. ولأن هذه الأوصاف المذكورة من البخل، وأمر الناس بالبخل، والكتمان لفضل الله، تنطبق أكثر ما تنطبق علىٰ اليهود، الذين كانوا يقولون للأنصار ـ في المدينة ـ لا تنفقوا أموالكم علىٰ محمد ـ ﷺ ـ فإنا نخشىٰ عليكم الفقر ـ وهذا كفر منهم ـ كما تنطبق علىٰ مَن شايعهم وتشبه بهم ـ وهذا يؤدي إلىٰ الكفر..

فقد قال الحكيم العليم: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أي هيأنا وأعددنا للكافرين عذابًا يؤلمهم، ويهينهم في الآخرة.

ثم يصف الله تعالىٰ هؤلاء الكافرين، بقوله سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾﴾

وهذا خُلق من أخلاقهم، إضافة إلىٰ ما سبق بيانه عنهم، فهم إذا أنفقوا أموالهم، كان ذلك رياءً للناس، حيث إنهم يريدون بهذا الإنفاق السمعة، والمدح من الناس لهم بالكرم، ولا يريدون بذلك وجه الله.

كما أنهم ـ وهذا هو السبب الحقيقي لبخلهم وريائهم ـ لا يؤمنون بالله، ولا يؤمنون باليوم الآخر.

ثم يبيِّن رب العزة ما حملهم علىٰ هذا الصنيع، حيث يقول:

﴿وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾.

إذًا: هو الشيطان، الذي سوَّل لهم، وزيَّن لهم أفعالهم، وأملىٰ لهم، وحسَّن القبائح في عيونهم وعقولهم، ومَن كان الشيطان صاحبه.. فقد ساء صاحبًا وقرينًا.

وبعد هذا البيان.. يقول عنهم رب العزة سبحانه وتعالىٰ:

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾

أي: ماذا يُضيرهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر، بدل هذا الكفر، الذي وقعوا فيه..؟

ماذا يُضيرهم لو سلكوا الطريق الحميدة، وعدلوا إلىٰ الإخلاص، بدل هذا الرياء، الذي خدعهم به الشيطان..؟

ماذا يُضيرهم لو جعلوا رجاءهم نوال موعود الله تعالىٰ، لمن يحسن عمله في الدار الآخرة، وأنفقوا مما رزقهم الله في الوجوه التي يحبها ربنا ويرضاها..؟

خاصة، وأنه عز وجل عليم بنيَّاتهم الصالحة والفاسدة، ومطَّلع عليهم، وعالم بكل أحوالهم، وفي هذا من التهديد، والوعيد، إن لم يؤمنوا، وإن لم ينفقوا.

هذا، وبعد أن أمر ربنا ـ سبحانه وتعالىٰ ـ بعبادته وحده، وبالإحسان للوالدين ومَن ذكر معهم، وبعد أن ذم البخل، والأوصاف المذكورة معه، وبعد أن وبخَّ مَن لم يؤمن، ولم ينفق في طاعة الله، وكان ذلك كله يستلزم ذكر الجزاء علىٰ الحسنات والسيئات.. لذا.. أخبر تعالىٰ بصفة عدله في الجزاء قائلًا جل شأنه:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾

أي: لا يظلم الله أحدًا من خلقه يوم القيامة مثقال ذرة، ولا أصغر من ذلك، بل يوفِّيها له، كما يضاعفها ويزيد عليها الثواب، إن كانت حسنة، وفوق ذلك يؤته من فضله أجرًا عظيمًا، وهو الجنة.

ولأن هذا الجزاء يكون في يوم القيامة، يبِّين ربنا عز وجل.. بعضًا من هول يوم القيامة، حيث يقول جل جلاله:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾

أي: كيف يصنع هؤلاء الكافرون، في يوم الجزاء، إذا جئنا من كل أمة بشهيد، وهو نبيهم، يشهد عليهم بما فعلوه..؟

وكيف يصنع هؤلاء الكافرون في يوم الجزاء، إذا جئنا بك يا محمد شهيدًا علىٰ أمتك، مَن آمن منهم بالإيمان، ومَن كفر بالكفر، ومَن نافق بالنفاق..؟

أو شهيدًا علىٰ الأنبياء بأنهم بلَّغوا أقوامهم وعلىٰ أممهم، بل علىٰ جميع الأمم من استجاب منهم لنبيه، ومَن كفر.

حقًّا.. هذا يوم رهيب، هوله شديد، وأمره عصيب.

﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾

في هذا اليوم يتمنىٰ الذين كفروا بالله وعصوا الرسول ﷺ ونبذوا تعاليمه ورفضوها، لو أن الأرض انشقت وبلعتهم؛ من هول ما يرون، من: أهوال الموقف، وما يحل بهم من الخزي، والفضيحة والتوبيخ.

يومئذ لا يقدرون علىٰ كتمان أي شيء مما فعلوه؛ لأن جوارحهم تشهد عليهم بكل ما فعلوه، كما أخبر الحق تبارك وتعالىٰ:

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ١٩ ـ ٢٣].

بعد الأمر الإلهي بالعبادة، وبعد التذكير بمشهد من مشاهد يوم القيامة، يأتي النهي عن الصلاة في حال السكر؛ لأن الصلاة جزء من العبادة، ومن الطبيعي أن العبادة التي تحقِّق المراد هي العبادة الواعية الخاشعة. ولذلك يقول رب العزة تبارك وتعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾

وسبب هذا النهي، ما روي أن عبد الرحمٰن بن عوف رضي الله عنه صنع طعامًا، ودعا أناسًا من الصحابة إليه، فطعموا وشربوا، قبل أن ينزل تحريم الخمر.

وحضرت صلاة المغرب، فتقدم بعض القوم، فصلى بهم المغرب، وقرأ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون: ١] فأخطأ فيها ـ بسبب السكر ـ ولم يقمها، فأنزل الله هذه الآية.

فكانوا ـ بعدها ـ لا يشربون في أوقات الصلوات، فإذا صلوا العشاء شربوها، فلا يصبحون إلَّا وقد ذهب عنهم السكر، وعلموا ما يقولون، ثم نزل تحريمها على الإطلاق ـ بعد ذلك ـ في سورة المائدة.

ومعنى الآية: لا تصلوا وأنتم في حالة سكر، حتى تعلموا ما تقولون، فتفهموا ما تقرؤون، فتخشعوا لله في صلاتكم.

وإذا كان هذا نهي عن قربان الصلاة في هذه الحالة، فقد تبعه في الآية نهي آخر عن قربان موضع الصلاة بسبب آخر.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟﴾.

أي: ولا تقربوا المساجد، وأنتم جنبًا إلَّا عابرى سبيل، إلَّا مارّين منها، لعدم وجود مكان تعبرون منه سواها،أي: للضرورة فقط، من غير مكث وبقاء فيها، وأنتم في حال الجنابة. ثم يذكر ربنا عز وجل حالات أخرى من حالات الضرورة. فيقول جل جلاله:

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾.

وهذا من باب التيسير في العبادة .**ومعنى الآية:**

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ بمرض يضر الإنسان استعمال الماء معه.

﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾أي: مسافرين، وأصابتكم جنابة، أو حدث أصغر.

﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ وهو المكان المعد لقضاء الحاجة، وقد قضيتم حاجتكم.

﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ وهو كناية عن الجماع.

أي: إن كنتم في حالة من هذه الحالات الثلاث، وأردتم الصلاة.

﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً﴾ تتطهرون به، من الحدث الأكبر أو الأصغر، لعدمه، أو بعده، أو لمانع منه، إضافة إلى حالة المرض.

﴿فَتَيَمَّمُوا۟﴾ أي: فاقصدوا بعد دخول وقت الصلاة.

﴿صَعِيدًا﴾ أي: ترابًا طهورًا.

واضربوا بأيدكم عليه ضربة بنية «التيمم» ﴿فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا﴾ بهذه الرخصة وهذا التيسير.

﴿غَفُورًا﴾ عن الخطأ والتقصير.

وبعد وضوح هذه الأحكام الميسَّرة في شريعتنا الإسلامية، يوضح الله الرؤيا للمتقين، بطبائع أهل الكتاب، ومواقفهم، كي لا نغتر بهم، بل يُحذّر فيها من موالاتهم.

فيقول عز من قائل:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾﴾

وهذا: تعجيب للمؤمنين من أحبار اليهود، وهم الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب، أي: التوراة، حيث إنهم يفضلون الضلالة على الهدى، ويُعرضون عما أنزل الله على رسوله ﷺ.

كما أنهم: يوّدون لو أنكم تكفرون بما أنزل عليكم أيها المؤمنون، وتتركون ما أنتم عليه من الهدى والعلم النافع، ويبذلون لتحقيق ذلك كل الوسائل.

ونظرة إلى واقع أهل الكتاب الحالي نرى أن خصائصهم السيئة هذه مستمرة ومستقرة.

ولكن، من نعم الله على المسلمين أنه يعلم أعداءهم، ويكفيهم شرورهم، لو أنهم تمسكوا بدينهم، معرفة وتطبيقًا، حيث يقول الله عز وجل:

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾

أي: أن الله أعلم بأعدائكم، ومدى عداوتهم لكم، فاحذورهم، ولا توادوهم، ولا تستنصحونهم في أموركم.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ في الدفع عنكم، ورد كيدهم إلى نحورهم.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ فثقوا بولايته لكم، واعتمدوا عليه وحده، والتزموا بشرعه، ينصركم عليهم، وكفى به لكم نصيرًا، وإليكم أيها المسلمون بعض أفعالهم وطباعهم.

كما أخبر الحق تبارك وتعالى:

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ

﴿مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾

أي: من اليهود.. فريق:

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ﴾ أي: يغيرون الوصف الذي أنزل الله في التوراة لمحمد ﷺ.

﴿عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ التي وضع عليها، ونزل في التوراة بها.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ للنبي ﷺ إذا أمرهم بشيء: ﴿سَمِعْنَا﴾ قولك ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أمرك.

ثم يدعون عليه، مستهزئين به قائلين: ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ أي: اسمع لا سمعت، وهي كلمة تحتمل أمرين:

الأول: اسمع حال كونك لا تسمع أصلًا، لصمم أو موت.

الثاني: اسمع منا لا سمعت مكروهًا.

وكانوا يُظهرون المعنىٰ الثاني، ويُضمرون الأول، وكانوا يقولون له ﷺ أيضًا: ﴿رَٰعِنَا﴾ وهي كلمة سب بلغتهم العبرانية أو السريانية.

وهي كلمة ـ أيضًا ـ تحتمل أمرين:

الأول: بمعنى.. السب في لغتهم.

والثاني: بمعنى.. ارقبنا وانتظرنا بكلمك.

وكانوا يظهرون المعنى الثاني، ويضمرون الأول.

مع أن هذا المعنى الذي كانوا يقصدونه منهيٌ عنه، في قوله تعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا﴾ [البقرة: ١٠٤].

ومع ذلك ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾.

﴿وَلَٰكِن﴾ طبيعتهم فاسدة، وأخلاقهم رديئة، وعقيدتهم كافرة.

﴿لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ أي: طردهم من رحمته بسبب كفرهم، ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

هذا.. وبعد أن ذكر الله للمسلمين ألوانًا من مكر اليهود، وسوء طبعهم، وشدة عداوتهم.. يتوجه ربنا عز وجل بالخطاب لليهود أنفسهم.. آمرًا لهم بالإيمان، مهددًا لهم بشديد العقاب، حيث يقول الحق جلَّ جلاله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾

أي: آمنوا أيها اليهود بالقرآن المصدِّق للتوراة، فيما جاءت به من أصول الدين.

﴿مِن قَبْلِ أَن﴾ نعاقبكم علىٰ كفركم ومكركم، بواحدة من أمرين، أو بالأمرين معًا:

الأول: ﴿أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾ أي: نمحو ما في الوجوه من العين، والأنف، والفم، وغير ذلك، فتصير كالقفا، لا يعرف لهم أمام من خلف، أو نحوِّل ما في الأمام بعد طمسه إلىٰ الخلف، وما في الخلف إلىٰ الأمام.

الثاني: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾ أو نمسخهم قردة وخنازير، كما مسخنا أصحاب السبت، الذين خالفوا أوامرنا.

وهذا تهديد لهم من الله تعالىٰ، بوقوع العذاب عليهم، وما يريده الله تعالىٰ لا راد له.

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: قدره، وإرادته ﴿مَفْعُولًا﴾ أي: واقع لا محالة.

ولمَّا كان اليهود يفعلون ما يفعلون من التحريف، والكذب علىٰ الله، وغير ذلك، ويطمعون في مغفرة الله لهم، كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩]..!! فقد هدَّدهم الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ، مبينًا أنه لن يغفر لهم مع كفرهم وشركهم.

حيث قال الله تبارك وتعالىٰ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾

والمعنىٰ: أن الله لا يغفر لمن مات علىٰ الشرك أبدًا، أمَّا ما دون الشرك، فالله يغفر جميع الخطايا والذنوب، لمن يشاء من عباده.

ولهذا، ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ فقد كذب كذبًا شنيعًا، و﴿ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ يستحق به عذابًا أليمًا.

والعجيب، أن اليهود لمَّا نزلت هذه الآية، قالوا: لسنا مشركين، بل ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨].

وقالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١].

وقالوا: إن آباءنا كانوا أنبياء، فسيشفعون لنا.

والأعجب: أن اليهود ما يزالون يعيشون في أوهامهم هذه إلىٰ اليوم، حيث يدَّعون أنهم «شعب الله المختار» ولذلك يتندَّر الله بهم، ويعجب من أقوالهم.

حيث يقول عنهم المولى جلا وعلا:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾

أي: أرأيت هؤلاء الذين يمدحون أنفسهم، وهم اليهود إنه لأمر عجيب..!!

علىٰ كل حال: ليست العبرة بتزكيتهم لأنفسهم، بل العبرة بتزكية الله لمن يشاء من عباده الصالحين، الذين يوفِّيهم أجورهم كاملة ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ ولا ينقصون منها أدنىٰ شيء، ولو كان مثل ما في شق النواة؛ لأنه سبحانه العالم بمن هم أهل تزكيته وثوابه.

ثم قال تعالى:

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾﴾

انظر أيها المؤمن، وتعجَّب من حالهم، وكيف أنهم ﴿يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ﴾ بكل أنواعه، ومنه تزكيتهم لأنفسهم.

﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ﴾ أي: بهذا الكذب.

﴿إِثْمًا مُّبِينًا﴾ ذنبًا شنيعًا واضحًا، يستحق أشد العقوبات.

ثم يذكر رب العزة جرمًا آخر من جرائمهم يعرضه أمام المؤمنين، ويلفت أنظارهم إليه؛ ليزداد حذرهم من اليهود. حيث يقول تبارك وتعالىٰ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾

هؤلاء اليهود الذين أوتوا حظًا من الكتاب يرتكبون جرمين شنيعين:

الأول: أنه بالرغم من نزول التوراة إليهم، فهم ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ﴾ أي: بما عُبد من دون الله، كالأصنام، والكواكب، وغير ذلك، كما يؤمنون بالطَّاغوت، وهو الشيطان، أو كل مَن تجاوز حدود الله وشرعه.

الثاني: يقولون للكافرين أنتم أهدى سبيلًا، وأقوم طريقًا من محمد ﷺ وأصحابه، بالرغم من علمهم أن الأمر علىٰ خلاف ذلك.

علىٰ كل حال، يقول الله عنهم:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾

أي: هؤلاء الموصوفون بكل ما سبق، وهم اليهود هم ﴿الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: أبعدهم من رحمته.

﴿وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ يعتد به، وتنفع للنهاية نصرته.

وبعد هذا الحكم الإلهي العادل عليهم.. ينكر عليهم رب العزة حالهم، ودوافعهم لهذه التصرفات الكافرة الخسيسة منهم. حيث يقول جلا وعلا:

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾

أي: ما الذي يدفعهم إلىٰ ارتكاب هذه الجرائم التي يرتكبونها..؟ أهو ما يملكون..؟

إنَّهم لا يملكون شيئًا يعتد به، ويدفعهم لمَا يفعلون..!!

إنهم لو كانوا يملكون شيئًا ذا أهمية.. لمَا أعطوا أحدًا شيئًا ولو كان تافهاً، مثل النقير، وهي النقطة في ظهر النواة، لفرط بخلهم.

إذًا ليس الغنى، والسخاء هو الذي يدفعهم إلىٰ ذلك، فليس إذًا إلَّا خسة طبعهم، وفساد أخلاقهم.

هل هناك شيء آخر يدفعهم إلىٰ ارتكاب هذه الجرائم..؟

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾

أهو الحسد الذي دفعهم لعدم الإيمان بمحمد ﷺ؛ لأن الله رزقه النبوة، وهو من العرب، وليس من بني إسرائيل..؟ فلمَ يحسدون..؟ ولمَ يكفرون..؟

ليس هذا.. هو السبب الوحيد، إنما هي طبيعتهم الفاسدة.

﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ أي: أنزل الله مع ذرية إبراهيم، وهم أسباط بني إسرائيل التوراة، وجعل فيهم الحكمة.

وأتاهم ﴿مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ مثل: يوسف، وداود، وسليمان عليهم السلام.

فماذا فعلوا..؟

﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾

أي: فمن اليهود.. مَن آمن بما ذكر بالكتاب، الذي أنزل علىٰ الأنبياء من آل إبراهيم عليهم السلام.

ومنهم: مَن كفر به، وصد الناس عنه، ومنعهم من اتباعه، والاهتداء بهديه، مع علمه بصحته، وهذه هي طبيعتهم، فليس مستغربًا كفرهم بمحمد ﷺ.

علىٰ أية حال: سنعذبهم علىٰ هذا في جهنم.

﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ أي: وكفى بالنار عقوبة لهم علىٰ كفرهم، وعنادهم، ومخالفتهم كتب الله ورسله.

ويختم الله تعالى هذا الموضوع بالقرار الإلهي العادل الخالد، حيث يقول الحق تبارك وتعالىٰ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾﴾

نعم... ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ بعد إرسال الرسل، وإنزال الكتب، ووضوح الدلائل.. يستحقون ما يحدث لهم. **ماذا يحدث لهم..؟**

﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ سندخلهم نارًا يحترقون فيها.

﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ أي: كلما احترقت جلودهم بالنار، أعدناها لهم من جديد.

﴿لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: لتحترق من جديد، وهكذا... كلما احترقت عادت، فيزداد عذابهم، جزاء استمرار كفرهم، وعنادهم، وتكذيبهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ لا يعجزه شيء.

أما الصنف الآخر من الناس؛ فيقول عنهم رب العزة:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾

نعم، إنَّ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله، ورسله، وكتبه، واليوم الآخر.. إلخ.

﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لإصلاح البلاد، وإسعاد العباد، طاعة لله، ماذا يحدث لهم..؟ ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ في الجنة.

لمَّا كان اليهود يعرفون الحق الذي عليه محمد ﷺ، ويعرفون أوصافه من التوراة.. وكان ذلك أمانة عندهم.

ولكنهم خانوها، فلم يؤمنوا بها أولًا، ثم أنكروها وكتموها عندما سألهم عنها أهل مكة، كما سبق ذكره.. !! وكانت هذه أمانة خاصة.. أمر الله عموم المكلفين بأداء الأمانات بصفة عامة. فقال عز من قائل:

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾

قال العلماء: لمَّا فتح رسول الله ﷺ مكة، دعا عثمان بن طلحة، وأخذ منه مفتاح الكعبة، فقال له عثمان: هاكَ أمانة الله، ففتح النبي ﷺ الكعبة، وصلَّى، ثم خرج، فطاف بالبيت، ثم نزل عليه جبريل بهذه الآية.

فرد النبي ﷺ المفتاح إلىٰ طلحة، وقال: **«لقد أنزل الله في شأنك قرآنًا»**، وتلا عليه الآية.

فقال عثمان: أشهد أن لا إله إلَّا الله وأن محمدًا رسول الله، وأسلم، فكان المفتاح معه إلىٰ أن مات، فدفعه إلىٰ أخيه شيبة، فالمفتاح في أولادهم إلىٰ يوم القيامة.

هذا.. وإن كان سبب الآية خاصًا، إلَّا أن معناها عام، في جميع الأمانات مع الله، كفعل المأمورات، وترك المنهيات، أو مع نفسه؛ لحفظه لكل ما أنعم الله عليه به فلا يستعمله إلَّا فيما يرضى الله عنه، أو مع الناس: في حفظ أماناتهم، ورعاية عهودهم.. حيث يقول المصطفى ﷺ: **«أدِّ الأمانة إلىٰ مَن ائتمنك، ولا تخن مَن خانك»**.

ثم يقول رب العزة: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ﴾ أي: إذا حكمتم بين الناس، فاحكموا بحكم الله، بلا هوىٰ، ولا ظلم، بل بإنصاف وعدل.

ويدخل فيه: العدل في الأحكام، والأقوال، والأفعال، والأخلاق، وكل ما يدخل العدل فيه، ويحتاج إليه.

ثم بيّن ربنا ـ ترغيبًا لنا ـ حسن العدل، ومنزلة أداء الأمانة .حيث يقول:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ أي: نعم الشيء الذي يعظكم به ربكم من العدل، وأداء الأمانة، فاتبعوه وحافظوا عليه، ولا تتهاونوا في الإلتزام به.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا﴾ لأقوالكم ﴿بَصِيرًا﴾ بأعمالكم، وسيجازيكم عليها خيرًا، أو شرًا علىٰ حسب اختياركم لها.

هذا.. ولمَّا أمر الله الولاة بالعدل في الحكومات، قائلًا: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ أمر الناس بطاعة هؤلاء الولاة، لكن.. لا علىٰ الإطلاق.

بل ضمن طاعة الله ورسوله، حيث قال جلا وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾

والأمر للمؤمنين ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بالعمل بكتابه.

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ بطاعة شخصه في حياته، والعمل بسنته بعد وفاته ﷺ.

﴿وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ وهم الأمراء، وذلك فيما يأمرون به من طاعة الله ورسوله، دون الأمر بمعصية.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أولو الأمر هم أهل الفقه والدين، ولا تعارض بين هذا وذاك، لأن الأصل: أن يكون الأمراء.. علماء فقهاء.

فقد أخرج الدارمي عن تميم الداري، أن عمر الفاروق رضي الله عنه قال: «لا إسلام إلَّا بجماعة، ولا جماعة إلَّا بإمارة، ولا إمارة إلَّا بطاعة.. فمَن سوده قومه ـ أي: جعلوه رئيسًا عليهم ـ علىٰ فقهٍ، كان حياة له ولهم، ومَن سوّده قومه علىٰ غير فقه، كان هلاكًا له ولهم».

ثم يقول الله عز وجل:

﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾

يعني: فإن اختلفتم أنتم وأولو الأمر في شيء من أمور الدين، او اختلفتم فيما بينكم في شيء من ذلك .﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ أي: فارجعوا فيه إلىٰ الكتاب والسُّنَّة، وانزلوا علىٰ حكمها.

هذا ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ حيث إن مقتضى الإيمان الطاعة، ومن مقتضى الطاعة: الرد إلىٰ الكتاب والسُّنَّة في حالة النزاع والخلاف.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الرد إلىٰ الكتاب والسنة .﴿خَيۡرٞ﴾ لكم في عاجل أيامكم، وأمور حياتكم.

﴿وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ أي: أحسن لكم في الآجلة والعاقبة.

وبعد هذا التوجيه المفيد، من ربنا العزيز الحكيم.. يلفت سبحانه نظر رسوله ﷺ، والمؤمنين.. إلىٰ مَن يدَّعي الإيمان، ويتحاكم في أمور حياته، وفصل خصوماته، إلىٰ غير الكتاب والسنة. فيقول الله عز وجل:

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ٦٠﴾

والمعنىٰ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ﴾ أرأيت هؤلاء المنافقين الذين يدَّعون، وأمرهم العجيب..؟ ماذا يدعون..؟

﴿يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ من الوحي والقرآن، ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ﴾ علىٰ رسل الله عليهم الصلاة والسلام.

وما العجيب في ذلك..؟ إن فعلهم يخالف قولهم..!! كيف..؟

﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ أي: يرجعون في أمور حياتهم وخصاماتهم إلىٰ ما خالف الكتاب والسنة، وهو المراد بالطاغوت هنا.

مع أن دعواهم الإيمان تقتضي: أن يتحاكموا فيما ذكر إلىٰ الله والرسول ﷺ، وهم لم يفعلوا ذلك.

وقيل: الطاغوت هنا: هو كل مَن جاوز الحد في طغيانه وعتوّه، ومحاربته للإسلام وأهله.

وقيل: إنه الشيطان، ممثلًا بجنده وأتباعه، نعم، إنهم تحاكموا إليه.

﴿وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾ أي: بهذا الطاغوت، فلا يطيعونه، ولا يتحاكمون إليه، ولكن خاب سعيهم.

﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ﴾ عن الحق ﴿ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ مستمرًا لا يخرجون منه، ولا ينفكُّون عنه.

إذا كان أمرهم كم رأيت عجبًا، فانظر معي إلىٰ الأعجب منه في قوله تعالىٰ:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾

أي: ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ لهؤلاء المنافقين، ﴿تَعَالَوْاْ﴾ نحتكم في الخصومات والخلافات، ﴿إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ في كتابه الكريم .﴿وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ ﷺ، شخصيًّا في حياته، وإلىٰ سُنته المطهرة بعد وفاته.

﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ لاحظ ـ أخي الكريم ـ لم يقل رب العزة «رأيتهم» بل قال ذلك ذمًّا لهم، وتسجيلًا لوصفهم، وبيانًا لعلة الحكم عليهم.

نعم ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ يعرضون عنك أشد أنواع الإعراض، وينفرون منك، ولا يستجيبون لك.

ثم يهدِّد ربنا عز وجل هؤلاء المنافقين، ويبيِّن أنه ستنزل بهم مصائب، فكيف يتصرفون..؟ يقول الحق تبارك وتعالىٰ:

﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾

ومعنىٰ الآية: ﴿فَكَيْفَ﴾ يصنع هؤلاء المنافقون ﴿إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾ أي: عقوبة أو كارثة، ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بسبب ذنوبهم، أو بسبب تحاكمهم

إلىٰ غير الله ورسوله، ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ﴾ يعتذرون لأنهم احتاجوا إليك ﴿يَحْلِفُونَ﴾ لك علىٰ حسن نيتهم، وهم كاذبون، يقولون: ﴿إِنْ أَرَدْنَآ﴾ أي: ما أردنا بتحاكمنا إلىٰ غيرك ﴿إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ بين الخصوم، ولم نرد مخالفة لك، ولا إنكارًا، أو اعتراضًا لحكمك. وهذا شأن المنافق دائمًا، يظن أنه محسن في نفاقه، وأنه يجمع بين وجهات النظر كلها.

علىٰ كل حال هذا التساؤل والاستفهام من الله تعالىٰ، وعيد لهم وتهديد علىٰ فعلهم، وبيان لنا أنهم سيندمون حين لا ينفع الندم، ولا يغني عنهم الاعتذار.

ثم يبيِّن رب العزة الموقف الصحيح، والتصرف المناسب مع هؤلاء المنافقين، حيث يقول الحق تبارك وتعالىٰ:

﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾

أي: هؤلاء هم المنافقون، قد اتَّضحت صورتهم، وظهرت مواقفهم، والله عز وجل يعلم ما في قلوبهم، من الشك والنفاق. وأما موقفك منهم:

أولًا: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ فلا تعاقبهم.

ثانيًا: ﴿وَعِظْهُمْ﴾ ذكِّرهم بالله، وخوفهم من غضبه وعقابه.

ثالثًا: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ أي: قل لهم في شأن أنفسهم قولًا مؤثرًا؛ ليرجعوا عن كفرهم وضلالهم.

ويلاحظ: أن هذه الصورة التي عرضت للمنافقين تدل علىٰ أن الاهتداء بكتاب الله، وقبول الاحتكام له، والخضوع لحكمه هو المقياس الذي يحدد تقوىٰ الإنسان أو نفاقه.

وبعد ذلك يبين ربنا سبحانه وتعالىٰ الأصل الأصيل الدائم في موضوع الطاعة هذه، فيقول الله عز وجل:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾

أي: ما أرسلنا رسولًا قط، إلَّا وشأنه أن يُطاع بتوفيق الله وتيسيره، حيث إنه هو المبلغ عن الله، وطاعة الله واجبة، ومن هنا فطاعة الرسول واجبة.

ولذلك: أمر كلّ رسول المبعوثَ إليهم، أن يطيعوه لأنه مؤد عن الله.

ومع هذا، فالمنافقون لم يطيعوه، وظلموا أنفسهم، إلَّا أن التواب الرحيم يقول:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾

يعني: ولو أنهم حينما ظلموا أنفسهم بعدم طاعتك، واحتكامهم إلىٰ الطاغوت.

﴿جَآءُوكَ﴾ تائبين من النفاق، معتذرين عما ارتكبوا من الاحتكام إلىٰ غير الكتاب والسنة. لو فعلوا ذلك ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ بالشفاعة، والدعاء لهم.

ماذا يحدث..؟

﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ أي: لتاب الله عليهم، وقبل اعتذارهم، ورحمهم وعفا عنهم.

يقسم ربنا ـ جل جلاله ـ بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا إيمان حتىٰ يُحكَّم الرسول ﷺ في جميع الأمور.. إذْ يقول الحق جل جلاله:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾

أي: فوربِّك لا يؤمنون إيمانًا حقيقيًّا مقبولًا، ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾ إن كنت حيًّا يا رسول الله، ويحكموا الكتاب الذي جئت به، وهو القرآن، وسنتك المطهرة بعد وفاتك عن طواعية منهم واختيار.

﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بعد تحكيمهم لك، وحكمك فيهم ولهم.

﴿حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ أي: لا يجدون ضيقًا أو شكًّا في حكمك بينهم، وقضائك فيهم.

﴿وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ أي: وينقادون لقضائك، وحكمك انقيادًا ظاهرًا وباطنًا، من غير مخالفة ولا منازعة. ولذا فعليهم أن يحكِّموك، بكل رضىً وتسليم، فهذا أَمرٌ هيِّن .

ثم قال اللهُ تعالىٰ:

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾

يعني: لم نكتب عليهم، ولم نطالبهم ونوجب عليهم ما كتبنا وأوحينا علىٰ بني إسرائيل، لقبول توبتهم من قتل أنفسهم، بأن يقتل بعضهم بعضًا، أو أن يخرجوا من ديارهم. ولو كتبنا عليهم ذلك ما فعله إلَّا قليل منهم؛ لصعوبة الأمر عليهم.

وما دام الأمر كذلك فليفعلوا ما طُلِبَ منهم ووعظوا به، وهو احتكامهم إليك، وطاعتهم لك، ورضاهم بحكمك.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ يعني: ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به، ويطلب منهم من اتباع رسول الله ﷺ، والانقياد لحكمه، مهما كان الأمر أو الحكم.

﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ في الدارين، ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ لهم في الإيمان، وعدم الشك والنفاق.

﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: وإذْ يفعلون ذلك.

﴿لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ثوابًا كثيرًا عظيمًا لا ينقطع.

أيضًا: ﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ يعني: وفوق هذا الثواب والأجر الذي نعطيهم إياه.. ثبتناهم علىٰ الدين الحق، وهدينا قلوبهم إليه، وفيه.

ثم يبشِّر الله تعالىٰ مَن يطع الله ورسوله، بأن يدخله دار كرامته، في صحبة الكرام الطيبين، حيث يقول الحق تبارك وتعالىٰ:

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾

يعني: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ فيعمل بالكتاب والسنة.

﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ برضوانه.

ثم عددهم فقال: ﴿مِّنَ النَّبِيِّينَ﴾ وهم صفوة خلقه.

﴿وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ وهم الذين صدقوا مع الله ظاهرًا وباطنًا.

﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ وهم الذين باعوا أنفسهم لله، واستشهدوا في سبيله.

﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وهم مَن صلحت قلوبهم وأحوالهم، وحسنت أعمالهم.

﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ أي: وما أحسن رفقة هؤلاء.

وعلىٰ ذلك: فليعمل لنوالها العقلاء.

ثم بيَّن أن هذا الإنعام فضل منه وحده، قائلًا عز وجل:

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾

أي: ما أعطى الله المطيعين من الأجر العظيم، وما أنعم عليهم بمرافقة هذه الصحبة، التي أنعم الله عليها، إلَّا بفضل منه وإكرام لهم.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ أي: وكفىٰ به عليمًا، يعلم مَن يستحق الفضل، ومَن لا يستحق.

حقًّا.. حقًّا. فكل إنعام منه علىٰ عباده فهو تفضل وتكرم لا يليق إلَّا بذاته سبحانه.

وعلىٰ ذلك، فعلىٰ العباد أن يثقوا بما أخبرهم به محمد ﷺ، وأن يمتثلوا لمَا أمرهم به الله، ونهاهم عنه.

هذا.. وبعد أن بيَّن لنا رب العزة فيما سبق كثيرًا من الأمور الدينية، من عبادته تعالىٰ، وعدم الشرك به، وكثيرًا من الأمور المدنية.. كمعاملة ذي القربىٰ، والجيران، وغيرهم، وكثيرًا من الأمور الشخصية.. كأحكام الزواج، والميراث، وغير ذلك، يبدأ عز وجل في بيان بعض الأحكام السياسية والحربية، وفي رسم الطريق التي نسير عليها في حفظ ملتنا، وحكومتنا ـ المبنية علىٰ تلك الأصول ـ من الأعداء.

فيقول الله تبارك وتعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾﴾

وفي هذه الآية الكريمة يأمر الله عباده المؤمنين بأمرين:

الأول: الحذر من عدوِّهم.. وهذا.. يستلزم منهم التأهّب لأعدائهم؛ بإعداد الأسلحة والعُدَد، واليقظة الكاملة، ومعرفة أعدائهم، وكشف مخططاتهم للنيل من المسلمين.

الثاني: النفير العام في سبيل الله، والاستعداد الدائم الكامل لقتال الأعداء، بل قتالهم إذا لزم الأمر، وذلك يكون حسب الظروف التي تدعو إلىٰ ذلك.

سواء كان هذا النفير ﴿ثُبَاتٍ﴾ أي: جماعات متفرقة، وسَرِيَّة بعد سرية، أو ﴿جَمِيعًا﴾ أي: مجتمعين، في صورة جيش كامل العَدَد والعُدَّة.

ومن هذه الآية نفهم: أنه ينبغي علىٰ المسلمين ألَّا يتركوا الجهاد في سبيل الله أبدًا علىٰ قدر ما يلزم، وبحسب ما يمكن.

وما أكثر غفلة المسلمين عن فهم ذلك.. !! فهم حينما غاب عنهم فهم هذه الآية، أو غابوا عن فهم هذه الآية، وتركوا الجهاد في سبيل الله، تغلب الكافرون علىٰ أرضهم، وسيطر الأعداء علىٰ بلادهم.. وذلوا في أوطانهم لعدوهم، وطمع به كل طامع.

وننبِّه بشدة.. علىٰ أنهم إذا لم يعودا إلىٰ دينهم بإحياء فريضة القتال في سبيل الله علىٰ قدر المستطاع، ويملكوا الوسائل المعينة علىٰ ذلك، فلن تكون كلمة الله هي العليا.. لا في أقطارهم، ولا في العالم.

وهذا ما أشار إليه الحديث الشريف من قوله ﷺ: «**إذا تبايعتم بالعينة، ورضيتم بالزرع، وتركتم جهادكم سلَّط الله عليكم ذُلًّا، لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلىٰ دينكم**».

وكان ميزان الرجوع إلىٰ الإسلام ـ علىٰ هذا ـ هو الجهاد.

وقد شدَّد الإسلام علىٰ هذا الأمر أيَّما تشديد، في هذا الأمر.

ويفهم ذلك جيدًا من قوله تعالىٰ:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وحتىٰ يكون صف المجاهدين قويًّا متماسكًا، ينبه الله عز وجل علىٰ أن بعض الذين يخالطون المؤمنين، ويتظاهرون بالإسلام يتخلفون عن القتال في سبيل الله، ويتباطئون ويُبطئون غيرهم.

وهؤلاء: ينبغي أن لا يكون لهم أثر أو تأثير في عزائم المجاهدين في سبيل الله، حيث يقول الله تعالىٰ كاشفًا لهم:

﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾

أي: أنه يوجد معكم، وبين صفوفكم مَن يتثاقل عن الجهاد؛ لأنهم لا يحبون أن يبقىٰ الإسلام، ولا أن ينتصر أهله، بل إنهم يُثقِّلون غيرهم، ويحاولون صرفهم عن الجهاد.

ثم فصَّل المولىٰ أحوال هؤلا، ومواقفهم:

فهم إذا أصابتكم أيها المؤمنون الصادقون المجاهدون مصيبة من قتل أو هزيمة حربية فرحوا، وقال الواحد منهم: قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم حاضرًا هذه المعركة، فأصابُ مثلما أُصيبوا.

أما إذا أصابكم فضل من الله، كنصر أو غنيمة فهذا موقفهم.. كما يصوره رب العزة حيث يقول:

﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾

وهذا منطق الماديين، أصحاب المصالح، يتحسَّرون علىٰ هذه المكاسب التي ضاعت عليهم، وحرموا منها، ويندمون علىٰ أنهم لم يكونوا مع المؤمنين، حتىٰ ينالوا من هذه الغنائم، وكأنهم لم تكن بينهم وبين المؤمنين مودة، أو معرفة، وكأنه ما طلب منهم الاشتراك في هذه الغزوة أو تلك، بل كأنهم ما تباطئوا وتثاقلوا وتخلفوا عن الجهاد في سبيل الله أصلًا.

وبعد أن بيَّن الله تعالىٰ فساد تصور المنافقين، لموضوع الجهاد في سبيل الله، وعدم فهمهم لحكمته، وبعد أن حصَّن الصف المؤمن المجاهد من خطر تثبيطهم عن الجهاد في سبيل الله يصدر أمره للمؤمنين الصادقين بالقتال في سبيل الله، حيث يقول عز من قائل:

﴿۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾

أي: لئن صدَّ الذين مرضت قلوبهم، وهم المنافقون، وتباطؤوا عن القتال في سبيل الله، فليقاتل الذين يستحبون الآجلة علىٰ العاجلة، وهم المؤمنون المخلصون الثابتون علىٰ الحق.

ويحتمل أن يكون المعنىٰ أيضًا.. فليقاتل هؤلاء المنافقون الذين يشترون الحياة الدنيا بالآخرة.

علىٰ كلٍّ مَن ﴿يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا

﴿عَظِيمًا﴾ أي: كل مَن قاتل في سبيل الله، فنال النصر، أو الشهادة، فله عند الله مثوبة عظيمة، وأجر جزيل.

وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**تكفَّل الله للمجاهد في سبيله إن توفاه الله أن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى مسكنه سالمًا، مع ما نال من أجر أو غنيمة**».

وما ذلك إلَّا لاجتهاده في إعزاز دين الله.

وعلىٰ هذا فعلى المجاهد أن يوطن نفسه علىٰ أحدهما، النصر أو الشهادة، ولا ينبغي أن يكون همه مجرد أخذ المال.

وإذا كان هذا جزاء القتال في سبيل الله، وإذا كان هذا هو ثواب المقاتل في سبيل الله، فإن الله عز وجل يحضُّ علىٰ القتال في سبيله، ويشجِّع عليه، ويبيِّن لعباده الحكمة منه، بأسلوب الاستفهام، قائلًا جل جلاله:

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾

أي: أي شيء يمنعكم من القتال في سبيل الله، وقد عرفتم ثوابه وفضله وجزاءه؟!! وأي شيء يمنعكم عن القتال في سبيل الله، وقد وجدت دواعيه وأسبابه..؟!!

ومن أولىٰ من الله أن يقاتَل في سبيله..؟!! كذلك يقول الحق تبارك وتعالىٰ:

﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾

يعني: وما لكم أيها المؤمنون لا تقاتلون في سبيل الله نصرة لدينه، وفي سبيل استخلاص المستضعفين من الرجال والنساء والولدان المؤمنين، الراغبين إلىٰ الله تعالىٰ أن ينقذهم من طغيان مَن هم تحت سلطانه من الطغاة والظالمين.

ولذلك يدعون الله دائمًا قائلين: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ نفر بديننا، ونأمن علىٰ أنفسنا.

﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ أي: ولِّ علينا واليًا من المؤمنين يوالينا، ويقوم بمصالحنا، ويحفظ علينا ديننا وحقوقنا.

﴿وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ يمنعنا منهم، وينصرنا علىٰ أعدائنا.

وحقيقة مَن أولى من هؤلاء أن يُقاتل من أجلهم، طاعة لله تعالى..؟

وبعد أن اتَّضحت ضرورة القتال في سبيل الله، وبعد أن تقرَّر الأمر به، يبيِّن تعالىٰ الفارق بين قتال المؤمنين، وقتال الكافرين، فيقول تبارك وتعالىٰ:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ٧٦﴾

أي: أن الذين آمنوا يقاتلون عدوهم طاعة لله ورضوانه، ونشرًا لدينه، وإنقاذًا لعباده من ظلم الطغاة الجبارين، والذين كفروا يقاتلون المؤمنين؛ طاعة للشيطان وأعوانه، وتحقيقًا لمقاصده.

وفي هذا التوضيح ترغيب للمؤمنين في القتال في سبيل الله.

ومع ذلك يهيج رب العزة المؤمنين علىٰ قتال أعدائه، الذين هم أولياء الشيطان.

بقوله: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ﴾ أي: أنصاره وحزبه، وهم: الكفار بأصنافهم، ومنهم المرتدون، ولو قاتلتموهم فستغلبونهم بإذن الله.

والسبب واضح، حيث ﴿إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ والكيد: هو السعي في فساد الحال، علىٰ جهة الحيلة والمكر والخديعة.

وكيد الشيطان ضعيف؛ لأنه في مواجهة نصر الله وحمايته لأوليائه.

وفي هذا البيان لضعف الأعداء وكيد شياطينهم تشجيع المؤمنين علىٰ قتال أعدائهم. إذْ ما دام الشيطان وليهم، وهذا شأن كيده، وما دام الله تعالىٰ ولي المؤمنين، تعالىٰ شأنه، فكيف لا يجرؤ المؤمنون علىٰ الكافرين..؟!!

والعجيب.. !! أنه في كل زمان يوجد مَن يخشون القتال، حتىٰ من المؤمنين.. !! بل في جيلنا وبين أظهرنا وفي مجتمعاتنا، مَن يتصوَّر أن الإسلام مجرد صلاة وزكاة، أما أن يكون الإسلام قتالًا: فلا.

وكذلك في جيلنا، وبين أظهرنا، وفي مجتمعاتنا مَن يتصوَّر أن التقوىٰ في الصلاة والزكاة. وكل هذه تصورات ناقصة فاسدة، يُطهِّرُ الله عباده المسلمين المتقين منها، بالآيات التالية:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾

وكان ذلك في ابتداء الإسلام، حيث كان المسلمون مأمورين ـ فقط ـ بالصلاة، ومواساة المحتاج منهم، والعفو، والصفح، وترك القتال.

وكانوا ـ كذلك ـ يَلقون أذى من المشركين، وحينما يقابلون النبي ﷺ يقولون له: لو أذنت لنا في القتال..؟ فيقول لهم: ﴿كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ﴾، أي: عن قتال أعدائكم، وأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وكانت هذه مرحلة لها أسبابها من عدم فرضية القتال.

فلما هاجر النبي ﷺ، ونزلت هذه الآية، وأُمروا بقتال أعدائهم كانت المفاجأة.. !!

ماذا حدث..؟

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾؟!

أيْ: فلمَّا فرض القتال بعد ذلك في المدينة في السنة الثانية من الهجرة، وطُلب منهم الجهاد إذا فريق من هؤلاء المؤمنين، الذين كانوا يقولون للنبي ﷺ: لو أذنت لنا في القتال، ويقول لهم: ﴿كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ﴾ إذا بهم يجزعون، ويخافون من مواجهة أعدائهم بالقتال، كما يخافون أن ينزل الله عليهم بأسه، أو أشد من ذلك.

ويلاحظ: أن هذا الخوف منهم ليس شكًّا في الدين، ولا رغبة عنه، بل نفور منهم عن المخاطرة بالأرواح، وسفك الدماء، ويُتْم الأولاد، وتَأَيُّم النساء، وهذا خوف طبيعي، جُبِل عليه الإنسان، حيث إنه جُبِل علىٰ كراهة ما فيه خوف هلاكه غالبًا.

ولذلك لم يعترضوا علىٰ فرضية القتال، بل سألوا عن وجه الحكمة في فرضيته عليهم، قائلين ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾؟

كما أنهم لم يطلبوا إلغاء هذه الفرضية، بل طلبوا تأجيلها مدة أخرى، ولو إلىٰ أمد قريب؛ رغبة في الحياة وتجنبًا لسفك الدماء.

علىٰ كل حال، هذه حالة مرضيَّة في الصف الإسلامي.. وهي تحتاج إلىٰ علاج ويعالجها القرآن الكريم بأمرين:

الأول: بلفت النظر إلىٰ حقيقة الحياة الدنيا، وقلة متاعها.

والثاني: ببيان حقيقة الموت وحتميته، في ميدان القتال أو في غيره.

يقول سبحانه وتعالىٰ **في العلاج الأول:** ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي: متاع الدنيا قليل زائل، ومتاع الآخرة عظيم دائم.

والكثير إذا كان إلىٰ زوال فهو قليل، فكيف بالقليل الزائل؟!!

كما أن الآخرة، وما فيها من جنَّة ﴿خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ جزاء من الله بترك معصيته، والمسارعة في امتثال أوامره، ومنها الجهاد في سبيل الله.

﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي: وتجزون علىٰ أعمالكم، ولا تنقصون من هذا الجزاء أقل شيء، ولو كان ﴿فَتِيلًا﴾ وهو الخيط الممتدّ في تجويف النواة.

وما دام الأمر كذلك: فجاهدوا، ولا ترغبوا لأنفسكم عن هذا الخير الجزيل.

العلاج الثاني: للخوف من القتال. يوجد في قوله تعالىٰ:

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾

أي: يا مَن تخافون الموت في سبيل الله، أنتم ـ بطبيعة الحال ـ صائرون إلىٰ الموت، وهو واصل إليكم لا محالة.

حتىٰ ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ أي: في قصور، أو حصون حصينة عالية منيعة، سيصل إليكم، فإنه لا ينجي حذر من قدر.

وما دام الأمر كذلك: فجاهدوا في سبيل الله، ولا ترغبوا بأنفسكم عن هذا الخير الجزيل.

وبعد أن عالج ربنا ـ سبحانه وتعالى ـ بعطفه وكرمه هذا المرض، وهو كراهية القتال وحب الحياة عند هذا الفريق، ببيانه حقيقة الدنيا، والإعلام بأن الموت لا يتقدم ولا يتأخر، يعالج ربنا عز وجل.. مرضًا آخر، قد يصيب الصف الإسلامي، من المندسِّين فيه كالمنافقين، وغيرهم.

فيقول: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ

﴿يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ أي: أن بعض هؤلاء الذين خافوا من القتال، وطلبوا تأخير فرضيته، وقعوا في مرض آخر. وهو أنه ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾ أي: نعمة، من خصب ورخاء وسعة ﴿يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.. وهذا حق، ولا اعتراض عليه.

ولكن الاعتراض علىٰ قولهم الآتي، الذي يكشف خطأهم، ومرض قلوبهم.

وهو: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي: بلية، من جدب، وقحط، وبلاء.

﴿يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ أي: بسبب شؤمك علينا.. وأضافوها إلىٰ النبي ﷺ، وذلك عند نزول الآية.

وهذا يحدث في كل عصر، حيث ينسب المنافقون هذه الكوارث الإلٰهية، والابتلاءات الربانية إلىٰ ورثته ﷺ وحَمَلة دعوته.

والمعنىٰ: أن هؤلاء يعتبرون أن ما هم فيه من خير هو من الله، وهذا صحيح.

وأن ما هم فيه من بلاء، هو شؤم سببه محمد ﷺ، ومَن بعده، وهذا خطأ فادح.

ولذلك يجيبهم رب العزة بقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

أي كل ذلك من عند الله، فهو الذي يبسط الأرزاق، وهو الذي يضيِّقها، وهو الذي ينعم علىٰ الناس بالخيرات، وهو الذي يبتليهم بالمحن والاختبارات.

يعني كل شيء فعله وحده، سبحانه وتعالىٰ.

ثم ينكر عليهم هذا الفهم الخاطئ، والاعتقاد الفاسد، بقوله تبارك وتعالىٰ:

﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ إذْ لو فهموا لعلموا أن الكل من عند الله. وعلموا أن النعمة منه تعالىٰ بطريق التفضل والإحسان، وعلموا كذلك أن البلية منه تعالى، بطريق العقوبة علىٰ ذنوب العباد.

وبعد ذلك يبِّين ربنا جل شأنه، وجه الحق في هذا الموضوع، فيقول:

﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾

أي: ما أصابك أيها الإنسان من حسنة ـ أي: من نعمة وإحسان ـ ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ تفضلًا منه، وامتنانًا عليك بها.

﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ﴾ أي: مصيبة وبلية تسوؤك، فهي من الله أيضًا، بسبب ما كسبت يداك، واقترفته نفسك من الذنوب.

وصدق رسول الله ﷺ، حيث قال: «**ما من مسلم يصيبه وصب ولا نصب، ولا الشوكة يشاكها.. إلَّا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر**».

ثم يردّ عليهم في قولهم للنبي ﷺ حينما تصيبهم سيئة: ﴿هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ [النساء: ٧٨] مبينًا عظيم مكانة حبيبه ﷺ وذلك: بعد بيان بطلان زعمهم فيما قالوه.. حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ أي: فأنت يا محمد رحمة، وأنت رسول، وأنت مبلِّغ.

وعليهم بالتالي أن يتركوا ما هم عليه مما يخالف رسالتك؛ لينالوا رحمة الله وفضله ورضوانه، بدلًا من أن يعصوك، ويخالفوك، ثم يحمِّلونك مسؤولية ما ينزل عليهم من مصائب.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ يعني شهيدًا على رسالتك، شهيدًا بينك وبينهم، وعالم بما يجادلونك فيه، ويردون عليه فيما جئت به من حق، كفرًا منهم وعنادًا.

وبعد أن أكدَّ المولى رسالة محمد ﷺ يبيِّن بعض الأحكام المترتِّبة على ذلك.

وهي - في الوقت ذاته - لها اتصال وثيق بالسياق، وهو الحديث عن الجهاد، وما يتطلبه. يقول العزيز الحكيم:

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾

وهذه الآية تتحدَّث عن الطاعة، وهذا موضوع هام جدًّا.

حيث إنه لا يستطيع أي جيش في العالم أن يربح معركة، بدون طاعة لقياداته.

كما أنه: لا تستطيع أية أمة أن تربح في أيّ مجال من مجالات الحياة، إلَّا بانضباط وطاعة.

ولذلك، فنحن المسلمين مكلَّفون بالطاعة، بشرط أن تكون مبصرة، ولأهلها.

وعلى ذلك فمعنى الآية: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ﴾ في أوامره ونواهيه.

﴿فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ لأن الرسول ﷺ، لم يأمر، ولم ينه إلَّا بما أمر الله، ونهى عنه.

ولذلك، فإن طاعته في أوامره ونواهيه طاعة لله.

ومَن فهم ذلك جيدًا أعطىٰ رسول الله ﷺ، وسنته، منتهى الطاعة، وصار في غاية الانضباط لأوامر الشرع ونواهيه، ومَن لم يفهم ذلك، أو فهم، ولكنه أعرض عن الطاعة، فما العمل معه..؟

يجيب ربّ العزة علىٰ ذلك قائلًا: ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ يقول المولى لحبيبه عليه الصلاة والسلام: من أعرض عنك، وعن أوامرك، أو عن سنتك،: فلا يهمنَّك في شيء، ولا تحزن عليه.

﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ﴾ تحصي عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها وتعاقبهم بسببها، بل أمر ذلك إلىٰ الله تعالىٰ وحده.

وفي هذا تهديد واضح لمن أعرض عن هدي محمد ﷺ، وفي الوقت نفسه تبشير بالخير لمن أطاع وخضع، والتزم بما جاء به ﷺ.

وبمناسبة الحديث عن الطاعة وطاعة رسول الله ﷺ يكشف الله لحبيبه وللمؤمنين أمر المنافقين، فيقول جل جلاله:

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ٨١﴾

أي: يقول المنافقون إذا أمرتهم بشيء نحن مطيعون لك، وهذا شأننا معك لا نخالفك أبدًا .﴿فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ﴾ أي: خرجوا، وغادروا مجلسك.

﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ﴾ يعني قدروا أمرًا بيَّتوه بالليل مع أنفسهم، وهو عصيانك، غير الذي أعطوك بالنهار في مجلسك، وهو الطاعة.

وهذا هو النفاق: يظهرون لك أمرًا، ويبطنون خلافه.

وهؤلاء يهدِّدهم سبحانه وتعالىٰ، حيث يقول: ﴿وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ﴾ أي: يثبت ويسجل ما يبيتوه، في صحائف أعمالهم، ويحاسبهم، ويجازيهم عليه.

هذا ولا يهمل الحق تبارك وتعالىٰ أن يبيِّن للنبي ﷺ، التصرف المناسب معهم.

حيث يقول له: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ أي: فلا تهتم بهم،

ولا تنشغل بأمرهم ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الذي يكفيك أمرهم، ويدفع عنك ضررهم، وينتقم لك من مكرهم، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ لمن توكَّل عليه، واحتمىٰ به.

وبذلك نجد أن التصرف المناسب الذي أرشد الله حبيبه إليه، والأمة من بعده في هذا الموقف، ومع هذه الفئة يجمع بين الإعراض عنهم، والتوكل علىٰ الله تعالىٰ.

وبعد أن بيَّن الحق سبحانه مرضهم هذا المتمثِّل في عدم الطاعة، وبعد أن بيَّن كذلك التصرف السليم للمؤمنين مع هذه الفئة يوضح سبب هذا الداء، فيقول جلا وعلا:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾

والمعنىٰ: أن الذي أوقعهم في هذا المرض، هو عدم تدبرهم للقرآن وفهمهم له، وإفادتهم من هديه وأنواره.

ولذلك يستقبح رب العزة وينكر عليهم عدم التدبر هذا أي: أيعرضون عن القرآن وهديه فلا يتدبرونه، ويتأملونه؟!.

إنهم لو فعلوا ذلك؛ لعرفوا أنه من عند الله.

حقًّا ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ﴾ كما يزعمون..!! ﴿لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ أي: تناقضًا في معانيه، وتباينًا في نظمه.

ولكنه علىٰ غير ذلك، فما لهم لا يذعنون، ويطيعون؟!!

ثم يذكر ربنا عز وجل قضية أخرى مهمة، في موضوع الحرب والقتال.

هذه القضية لها علاقة بالحرب النفسية، وحرب الإشاعات، تحدث القرآن عنها تعليمًا للصف الإسلامي، ووضع علاجها حماية ووقاية له من أخطارها، حيث يقول تجلَّت حكمته:

﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾

وذلك أن المنافقين كانوا يتابعون أخبار المجاهدين الذين بعثهم النبي ﷺ لقتال الأعداء، فإذا عرفوا شيئًا من أخبارهم أشاعوه، وأذاعوه وتحدثوا به، مضيفين إليه من عندهم ما شاءوا، صابغين له بألوان حقدهم.

وكان هذا يضعف قلوب المؤمنين الذين تصلهم هذه الأخبار، عن طريق هؤلاء المنافقين، وليس هذا منهم بالتصرف الصواب المناسب.

وأما ما كان ينبغي فعله، فهذا ما سنقرؤه في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ أي: كان عليهم، إذا ما عرفوا شيئًا يتعلَّق بالنصر، أو بالهزيمة للجيوش المحاربة، أو شيئًا من أمور المسلمين الهامة العامة أن يبلِّغوه للنبي ﷺ، وذلك حال حياته، أو يبلغوه لأولياء الأمر، بدلًا من إذاعته، وإفشائه بين عامة الناس.

ولو فعلوا ذلك؛ لعرف أولو الأمر ما يستحق أن يُذاع، وما لا يستحق، وكيف يُذاع ؟ ومتىٰ يُذاع؟

وذلك لأنهم الأدرى بصالح الجماعة، وأحرص علىٰ حمايتها، وصيانة مصالحها.

وما هذه الشائعات التي تخلخل الصف الإسلامي، وتوهن تماسكه، إلَّا عمل من عمل الشيطان يسعده ويفرح لحدوثه.

ولذلك لا بد من الشعور الدائم بفضل الله، وحمايته لأوليائه. كذلك لا بد من التوكل عليه، والاستعانة به في جميع الأحوال.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: لولا إنعام الله عليكم بتزكيته لكم، وتطهيره لنفوسكم، وتقويته لقلوبكم.

ولولا ﴿رَحْمَتُهُۥ﴾ عليكم ـ كذلك ـ بإرسال رسوله ﷺ، وإنزال كتابه.

لولا هذا وذاك ﴿لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ فيما يوسوسه لكم، ويزيِّنه أمامكم من الفواحش، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ منكم، وهم مَن صفت فطرتهم، وزَكَتْ نفوسهم، واعتصموا بالله تعالىٰ في كل أحوالهم وأمورهم.

وفي هذا بشارة وإشارة، كما يقول بعض العلماء:

بشارة: بحفظ أهل الإيمان، **وإشارة**: إلىٰ أن السير وراء الإشاعات، والعمل علىٰ نشرها اتباع للشيطان.

فليحمد المؤمنون ربهم علىٰ هذه البشارة، وليلتزموا بمقتضيات هذه الإشارة.

تذكرون معي أمر ربنا عز وجل للمسلمين أن ينفروا لقتال عدوهم.. جماعات

جماعات، أو جيوشًا كاملة.. وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١] وهنا.. يأمر الله تبارك وتعالىٰ رسوله ﷺ بالقتال ولو منفردًا، حيث يقول له:

﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۗ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾﴾

والأمر لرسوله ﷺ، أمر لكل فرد من أمته.

يعني: لو نكلت الأمة كلها عن القتال، فعليك أن تقاتل بمفردك، إذا لزم الأمر، ودعت الضرورة. وفي هذه الحالة لا يضرك مخالفتهم، وتقاعدهم، فتقدم أنت للجهاد وحدك، وإن لم يساعدك أحد، فإن الله ناصرك.

أيضًا: ﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ﴾ أي: حُثَّ المؤمنين علىٰ الجهاد ورغِّبهم فيه، حيث إنهم يصيرون آثمين إذا تخلَّفوا، وتقاعدوا عنه.

وهذا القتال المنفرد، وهذا الحث للمؤمنين ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ﴾ أي: لعل الله بقتالك، وتحريضك للمؤمنين حتىٰ يقاتلوا يَكُفَّ بطش الذين كفروا عن المؤمنين، ويمنع ظلمهم عنهم، ويحول دون احتلالهم لبلادهم، وانتهاكهم لحرماتهم، واغتصابهم لحقوقهم.

﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ أي: وكن علىٰ ثقة ويقين وأنت تقاتل، وأنت تحرض المؤمنين علىٰ القتال أن ربك معك، وناصرك.

وكن علىٰ يقين وثقة أيها المؤمن، أن الله عز وجل أشد بأسًا من بأسهم، بل أشد بأسًا عليهم من بأسهم عليك، كما أنه أشد تنكيلًا بهم، وتعذيبًا لهم.

وكان بالإمكان إذن أن يكف هو بقدرته بأس الذين كفروا عن المؤمنين، ولكن.. شاءت حكمة الله أن يبتلي الناس بعضهم ببعض، وأن يبتلي المؤمنين بقتال أعدائهم.

هذا، ولأن القتال قد يترتَّب عليه أسر للمسلمين أو سجن لهم أو تعذيب واضطهاد، وقد يشفع ناس للمسلمين المبتلين - في مثل هذه الحالة - بالخير، وقد يحرض ناس علىٰ المسلمين المبتلين - في مثل هذه الحالة - بالشر.. !!

ولذلك يحضّ الله علىٰ الشفاعة في الخير، وينهى عنها في الشر، فيقول الله عز وجل:

﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾

والمعنىٰ: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً﴾ وهي ما كانت في دفع شر، أو جلب نفع، مع جوازها شرعًا، ﴿يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ أي: يكن له نصيب من ذلك الخير، الذي قام به، وترتب علىٰ شفاعته.

وفي الحديث الذي رواه الشيخان، أنَّ رسول الله ﷺ قال:

«اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله علىٰ لسان نبيه ما شاء».

أيضًا: ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً﴾ وهي: ما كانت في جلب ضر، أو منع نفع، أو كانت غير جائزة شرعًا ﴿يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ أي: يكن علىٰ صاحبها نصيب من إثمها. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾ مقتدرًا، أي: قادرًا عليه.

هذا، ولأن القتال كذلك قد تظهر فيه بادرة أخلاقية عند الكافرين، أو قد تظهر رغبة في السلام منهم، وفي هذه الحالة علينا أن نقابل بادرة الخير عندهم بمثلها، أو بأحسن منها؛ دعوة لديننا، وإعلامًا بأخلاقنا.

وأن نقابل بادرة الصلح بمثلها، مع ملاحظة شروط السلام في الإسلام حقنًا للدماء، وتحقيقًا لرسالة الإسلام. ولذلك يقول الله تعالىٰ:

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾

أي: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ﴾ من سلام، أو هدية، أو حسن معاملة، فحيُّوا بأحسن منها، أي: بسلام، أو هدية، أو معاملة، أو ردوا بمثل ما حييتم به. حيث إن المماثلة مفروضة، والزيادة مندوبة.

وفسَّر بعضهم التحية بالسلام فقط: لأنها هي التحية في ديننا في الدنيا وفي الآخرة.

ولا ريب أنه في هذا الأمر تأكيد علىٰ حسن الصلة بين الناس، وضرورة شيوع الأمن والمحبة بين النفوس، ومعاملة بعضنا البعض بمكارم الأخلاق، ومما يساعد علىٰ كل ذلك، إفشاء السلام بين الناس.

وبعد أن حثَّ الله تعالىٰ رسوله ﷺ علىٰ الجهاد، وبعد أمر المسلمين بمشاركته في

هذا الجهاد، وبعد أن أمرهم بإظهار المودة والمحبة بينهم، وبين بعضهم البعض، وبينهم وبين مَن يتودد إليهم.

وبين سبحانه وتعالىٰ أنهم مجزيون علىٰ كل هذا في يوم الجزاء. فقال جل شأنه:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾

أي: لا تقصروا في عبادته، والخضوع لأمره ونهيه، فإن في ذلك سعادتكم في الدنيا، ونجاتكم في الآخرة.

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ أي: لا أحد أصدق منه.

فيا ويح مَن لم يوحِّد ربه، ولا يؤمن باليوم الآخر، ولا يمتثل لأوامر الله ونواهيه.

إن الله سبحانه وتعالىٰ بعد أن ذكر أحكام القتال، وبعد أن ختم الله سبحانه البيان لها بالتأكيد علىٰ أنه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وحده، لا غيره يخشىٰ ضرره، أو يرجىٰ خيره، حتىٰ تترك هذه الأحكام لأجله، بعد كل هذا.. يذكر عز وجل هنا أنه لا ينبغي التردد من المؤمنين في أمر المنافقين، وينكر عليهم انقسامهم - بخصوص قتلهم - إلىٰ فريقين. حيث يقول جل شأنه:

﴿۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾﴾

أي: ما الذي جعلكم أيها المؤمنون تنقسمون بخصوص قتال المنافقين الذين ظهر نفاقهم إلىٰ فريقين، وما لكم لا تجمعون علىٰ رأي واحد، وتقطعون بكفرهم.

روىٰ الإمام أحمد عن زيد بن ثابت رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ لمَّا خرج إلىٰ أُحد، رجع ناس قد خرجوا معه، ولم يقاتلوا الكفار، فكان أصحاب رسول الله ﷺ في موقفهم من هؤلاء فرقتين، فرقة تقول: نقتلهم، وفرقة تقول: لا، فأنزل الله هذه الآية ينكر عليهم فيها رب العزة انقسامهم هذا، وعدم قتل هؤلاء المنافقين.

خاصة: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم﴾ أي:ردهم، وأعادهم إلىٰ دورهم وبيوتهم.

﴿بِمَا كَسَبُوا۟﴾ من الكفر والمعاصي، بسبب خذلانهم رسول الله ﷺ، وعدم قتالهم للكفار، ومن هنا: كان حكمهم بجواز قتلهم.

ثم يقول العزيز الحكيم للمؤمنين منكرًا ومعاتبًا: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ ؟

والمعنىٰ: أتريدون أن تجعلوه من جملة المهتدين.. مَن جعله الله ضالًا، فرده عن شرف الجهاد، وحكم عليه بالكفر، وأجاز قتله، وذلك: باللين معهم، ومسايرتهم في موقفهم المخزي، وعدم قتلهم!؟ لا ينبغي لكم ذلك .

واعلموا جيدًا أنه: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾

أي: مَن شاء الله إضلاله، بسبب عمله، فلا طريق له إلىٰ الهدى. وهؤلاء لم يُرد الله هدايتهم.

فكيف لا تكونون ـ أيها المؤمنون ـ صفًا واحدًا أمامهم، ويدًا واحدة عليهم؟!.

هؤلاء أيها المؤمنون:

﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾﴾

نعم، أنتم تنقسمون بخصوصهم، وتختلفون في الحكم عليهم، وفيكم مَن يقول: لا نقتلهم، بينما هم ـ في الوقت ذاته ـ يَودُّون.. لو تكفرون كفرًا مثل كفرهم، وضلالًا لكم مثل ضلالهم؛ ليتساووا معكم؛ وتتساووا معهم، فلا يكون لكم فضلًا عليهم، وشرفًا عنهم.

ولذلك: ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾

والمعنىٰ: إذا كان حالهم هو هذا، ورغبتهم لكم أن تكفروا كما كفروا.. فلا ينبغي لكم أن توالوهم وتودوهم. وهذا الحكم بخصوصهم مستمر، حتىٰ يؤمنوا، ويعلنوا ولاءهم الكامل للإسلام ظاهرًا وباطنًا، ويهاجروا في سبيل الله مع رسوله ﷺ للقتال، مخلصين صابرين محتسبين.

وللعلم يقول العلماء: الهجرة في سبيل الله علىٰ ثلاثة أوجه:

هجرة للمؤمنين في أول الإسلام، بالخروج من دار الكفر إلىٰ دار الإسلام، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٠٠].

وهجرة للمنافقين، وهي خروج الشخص مع رسول الله ﷺ صابرًا محتسبًا، لا لأغراض الدنيا، وهي المراد في هذه الآية.

وهجرة عن جميع المعاصي، يقول المصطفىٰ ﷺ: «**المهاجر من هجر ما نهىٰ الله عنه**».

هذا.. فإن هاجر هؤلاء المنافقون مع النبي ﷺ، وخرجوا معه لقتال الأعداء، صابرين، محتسبين لله، فبها ونعمت.

والأمر الآخر: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾

أي: فإن أعرضوا ورفضوا الهجرة في سبيل الله، **بمعنىٰ** رفضوا قتال الكفار مع رسول الله ﷺ والمسلمين، مع الإخلاص والصدق.. وأقاموا علىٰ ما هم عليه من النفاق وارتدوا وصرحوا بالكفر: ﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ في الحِلِّ أو في الحرمِ؛ حيث إن حكمهم حكم سائر المشركين قتلًا وأسرًا.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ وهؤلاء بالطبع لا يجوز لكم.. أن تتخذوا منهم وليًّا توالونه وتتعاملون معه، وتتودَّدون إليه أبدًا، ولا أن تتخذوا منهم نصيرًا لكم تنتصرون به علىٰ عدوكم، أو صديقًا تأتمنونه علىٰ أسراركم، أو تُطبِّعونَ معه علاقاتكم ومعاملاتكم.

وبهذه الآية، والتي قبلها بيَّن الله لنا الحكم الأصلي، في المنافقين.. وهو: قتلهم، وعدم إعطائهم النصرة والولاء، وعدم قبولها منهم ـ كذلك ـ حتىٰ يكونوا مؤمنين حقًّا، علمًا وعملًا.

هذا.. وبعد أن ذكر الله تعالىٰ هذا الحكم الأصلي في المنافقين، يذكر ـ سبحانه ـ صورًا تدخل تحت هذا الحكم، وصورًا ـ أخرىٰ ـ يستثنيها عز وجل من هذا الحكم. فمن الصور التي يُستثنى فيها قتل المنافقين هذه الصور. حيث يقول العزيز الحكيم:

﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾﴾

أي: لا تقتلوا من المنافقين مَن لجأ إلىٰ قوم بينكم وبينهم ميثاق، يعني: عهد،

ومهادنة، وذلك: لأن حكمهم يُصبح كحكم مَن تعاهدتم معهم على عدم القتال والحرب. وهذه قمة الوفاء، ومراعاة العهود من الإسلام، والمسلمين بالطبع.

ومن الصور كذلك التي يُستثنى فيها قتل المنافقين هذه الصورة أيضًا: ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ أي: لا تقتلوا من المنافقين قومًا حصرت صدورهم: أي: تضيق صدورهم ولا تستريح لقتال المسلمين، ولا يستريحون - أيضًا - أن يقاتلوا قومهم معكم.. يعني: هم لا لكم، ولا عليكم.

هؤلاء، وهؤلاء من نعمة الله عليكم، ولطفه بكم أن كَفَّهم عنكم.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾ أي: ولو شاء الله لقوّى قلوبهم، وأزال عنها الضيق، وجعلهم يقاتلونكم.

ولكنه لم يفعل ذلك، بل كفَّهم عنكم، ومنعهم من قتالكم.

﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾

يعني: ما داموا لم يتعرضوا لكم بقتال، وأعطوكم السلام منهم، والمسالمة معكم فليس لكم أن تقاتلوهم، ما بقوا على ذلك.

ثم يذكر ربنا عز وجل: صورة ثالثة للمنافقين تشبه الصورة السابقة في الظاهر، ولكنها تختلف عنها في الحقيقة. حيث يقول جل شأنه:

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾

أي: ستجدون من المنافقين فريقًا ثالثًا، يُظهرون للنبي ﷺ ولأصحابه الإسلام ليأمنوا بذلك على دمائهم وأموالهم وذراريهم، جانب المسلمين.

وفي الوقت ذاته يصانعون الكفار في الباطن.. فيعبدون معهم ما يعبدون من دون الله؛ ليأمنوا بذلك على دمائهم وأموالهم، وذراريهم، جانب الكفار.

وهؤلاء: ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا﴾ أي: كلما دعاهم المشركون إلى قتال المسلمين استجابوا لهم، وقاتلوا المسلمين، وصاروا عليهم أشد من كل عدو لهم.

هذا الفريق الثالث أمر الله عز وجل المسلمين أن يوقفوهم عند حدهم، فقال: ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: هؤلاء عليهم أن يفعلوا ثلاثة أشياء، هي:

١ ـ أن يعتزلوا، أي: يتركوا قتالكم.

٢ ـ أن يُعلنوا الإسلام الكامل، ظاهرًا وباطنًا.

٣ ـ أن يكفّوا أيديهم عن إيذاء المسلمين، ومناصرة أعدائهم عليهم.

فإن فعلوها، فقد صاروا مسلمين، وإن لم يفعلوها فهم مرتدون.

وفي هذه الحالة، فحكمهم كما في قول رب العزة: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي: خذوهم واقتلوهم، حيث وجدتموهم، في الحِلِّ أو في الحرم؛ حيث إن حكمهم حكم سائر المشركين، قتلًا وأسرًا.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ وهؤلاء: قد انكشف حالهم، وافْتُضِحَ سِتْرُهم. ولذلك جعلنا لكم عليهم حجة واضحة، وتسليطًا ظاهرًا؛ بسبب كفرهم وغدرهم، وإضرارهم بالمسلمين.

وبعد أن وضَّح الله عز وجل أمر قتال الكافرين والمنافقين، فإنه تبارك وتعالىٰ يبدأ في التحذير ـ وبشدة ـ من قتل المؤمنين، ويبدأ ـ أولًا ـ بالحديث عن القتل الخطأ.

فيقول عز من قائل:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾

أي: ليس المؤمن كالكافر الذي تقدمت إباحة دمه، فلا يليق بمؤمن، ولا يصح منه أن يقتل مؤمنًا إلَّا علىٰ وجه الخطأ، وعدم القصد إلىٰ ذلك.

ولكن إذا حدث ذلك علىٰ سبيل الخطأ، ومن غير قصد، فما الحكم..؟

يقول رب العزة: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ في هذه الحالة.. أي: حالة قتل المؤمن للمؤمن خطأ، علىٰ القاتل.. واجبان:

الواجب الأول: الكفارة لهذا الذنب العظيم، حتىٰ وإن كان خطأ.

وذلك بتحرير رقبة، أي: عتق رقبة، وإخراجها من الرق إلىٰ الحرية، بشرط أن تكون هذه الرقبة التي يعتقها مؤمنة.

والحكمة في ذلك:أنه لمَّا أخرج نفسًا مؤمنة من جملة الأحياء؛ لزمه أن يُدخل نفسًا مثلها مؤمنة في جملة الأحرار؛ حيث إن إطلاقها من قيد الرق.. كإحيائها.

الواجب الثاني: الدية لأهل القتيل.

وذلك: عوضًا لهم عما فاتهم من قتيلهم وخسروه بموته، بشرط أن تُسلَّم هذه الدية إلىٰ ورثته، يقتسمونها بينهم، كما يقتسمون الميراث، وعليه أن يدفع هذه الدية إلَّا في حالة واحدة، وهي أن يتنازل عنها الورثة، صدقة منهم وتطوعًا.

ويلاحظ: أن هذا الحكم هو فيمن قتل مؤمنًا خطأ، وكان يعيش بين قوم مؤمنين.

ولكن: لو كان المؤمن المقتول خطأ، يعيش بين قوم كافرين أهل حرب.

يعني: كان مسلمًا في دار الحرب، ولم يهاجر إلىٰ دار الإسلام، فقتله مسلم خطأ، فما الحكم إذن..؟

يقول ربنا سبحانه وتعالىٰ: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أي: إذا كان المقتول خطأ مؤمنًا، وهو في دار الحرب: فعلى القاتل واجب واحد فقط، وهو تحرير رقبة مؤمنة فقط، ولا دية عليه؛ لأن أولياءه من الكفار، أهل الحرب.

أيضًا لو كان المؤمن المقتول خطأ يعيش بين قوم كافرين، بينهم وبين المسلمين عهود ومواثيق، ولا حرب بينهم، فما الحكم ـ كذلك ـ في هذه الحالة..؟

يقول ربنا سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أي: إذا كان المقتول خطأ مؤمنًا، وهو في دار الكفر، ولكن بين المؤمنين، وأهل الكفر هؤلاء عهد وميثاق علىٰ عدم

الحرب، أو هدنة من الحرب. فعلىٰ القاتل واجبان:

الأول: الدية تُسلَّم لهم بناءً علىٰ هذا العهد، ووفقًا لهذا الميثاق، وذلك من باب الوفاء بالعهود والمواثيق.

والثاني: تحرير رقبة بشرط أن تكون مؤمنة.

هذا حكم الله تعالىٰ في قتل الخطأ، **ولكن:** ما الحكم.. إذا عجز القاتل عن تنفيذ هذا الحكم؟ وذلك بسبب فقره، وعجزه عن التملك؟

أولًا: بالنسبة للدية تدفعها عائلته، أي: أهله، يعني يقومون بدفعها عنه، إلَّا إذا تنازل عنها أهل القتيل، حسب قول الله تعالىٰ: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾.

ثانيًا: بالنسبة لتحرير الرقبة، يقول تعالىٰ: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: علىٰ القاتل ـ في حال فقره، أو عدم وجود أرقاء، كما في عصرنا هذا ـ عليه صيام شهرين متتابعين، لا إفطار بين أيامها. وذلك بدلًا عن عتق الرقبة.

هذا، وقد شرَّع الله ذلك توبة لكم ورحمة منه بكم، وهو العليم إذ يأمر الحكيم، إذْ يُقَدِّر، وإذ يُشَرِّع.

بعد أن بيَّن الله عز وجل ـ كما رأينا ـ حكم القتل الخطأ يبيِّن لنا ـ سبحانه وتعالىٰ ـ حكم قتل العمد، لو حدث، فيقول الله تبارك وتعالىٰ:

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾

والمعنىٰ: أن مَن قتل مؤمنًا قاصدًا قتله بما يُقتل به غالبًا، عالمًا بإيمانه، مستحلًا قتله، ولم يتب إلىٰ الله تعالىٰ فهو كافر، وعلىٰ ذلك: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ﴾ أربعة أشياء، هي:

١ ـ دخوله ﴿جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ أبدًا.

٢ ـ انتقام الله منه، وهو المراد من قوله: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾.

٣ ـ وطرده من رحمة الله تعالىٰ، وهو المقصود بقوله: ﴿وَلَعَنَهُۥ﴾.

٤ ـ وأن يُعدَّ له عذابًا عظيمًا، وهو المذكور بقوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾.

كل ذلك: لارتكابه أمرًا عظيمًا، وخطأً فاحشًا عظيمًا.

روىٰ الإمام أحمد، عن معاوية رضي الله عنه، قال: قال رسول الله رسول الله ﷺ: «**كل ذنب عسىٰ الله أن يغفره.. إلَّا الرجل يموت كافرًا، أو الرجل يقتل مؤمنًا متعمدًا**».

وروىٰ النسائي وغيره، عن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**يجيء المقتول متعلقًا بقاتله يوم القيامة، آخذًا رأسه بيده الأخرىٰ، فيقول: يا رب سَلْ هذا فيمَ قتلني؟ قال: فيقول القاتل: قتلته لتكون العزة لك، فيقول ربنا: فإنها لي، ويجيء آخر متعلقًا بقاتله، فيقول: رب سَلْ هذا فيم قتلني؟ قال: فيقول: قتلته لتكون العزة لفلان، قال: فإنها ليست له.. بُؤْ بإثمه، قال: فيهوي في النار سبعين خريفًا**».

أما مَن قتل مؤمنًا متعمِّدًا، غير مستحل لدمه، فهو مؤمن عاص، يستحق المقام الطويل في جهنم، إلَّا أن يعفو الله عنه.

ويلاحظ: أن في القتل ثلاثة حقوق: حق الله، وحق القتيل، وحق أوليائه.

فحق أوليائه: الدية، أو القصاص، **وحق الله تعالىٰ**: يسقط بالتوبة إن قبلها الله، **وحق القتيل**: يبقىٰ إلىٰ يوم القيامة، فإن شاء الله أن يرضي القتيل أرضاه عن قاتله، وتنازل عن حقه، وإن شاء عذَّب القاتل بحق القتيل، وأدخله الله النار، ولكن لا يخلد فيها أبدًا مثل الكافرين، وعلىٰ كُل فليحذر الإنسان من قتل أخيه المسلم حذرًا بالغًا.

وبعد أن بيَّن الله تبارك وتعالىٰ عقوبة القتل العمد، يأمرنا عز وجل أن نتبيَّن ونتثبَّت إذا قاتلنا في سبيله، كما ينهانا عن قتل مَن يُعلن إسلامه ممن يقاتلونهم في سبيل الله، وأن لا يرفضوا منه ذلك. رغبة منهم في تحصيل عرض من أعراض الدنيا، وهو ـ في الوقت ذاته ـ نهيٌ عمَّا تؤدي إليه قلة المبالاة في الأمور بصفة عامة. حيث يقول الله سبحانه وتعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾

والمعنىٰ: أيها المؤمنون، إذا سافرتم للجهاد في سبيل الله، فتبيَّنوا الكافر من المؤمن، وتثبتوا أنكم تقاتلون الكافرين فقط، حتى لا تقتلوا مؤمنًا خطأً، وأنتم لا تعلمون إسلامه بعد.

كذلك لا تقتلوا مَن ألقى إليكم تحية السلام علامة علىٰ إسلامه، ولا مَن انقاد لكم ونطق بالشهادتين، علامة علىٰ إسلامه، وأنتم تقولون له: ﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ إنما تقولها وقاية لنفسك ومالك، وهذا لكونكم تريدون ﴿عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ومتاعها الزائل.

أيها المؤمنون لا تفعلوا هذا طمعًا في الغنيمة ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ﴾ لكم ﴿مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ تغنيكم عن قتله، من أجل ماله.

خاصة وأنكم: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ أي: أنكم أول ما دخلتم في الإسلام كنتم مثلهم، وسمعت من أفواهكم كلمة الشهادة، فحقنت دماءكم وأموالكم من غير انتظار للاطلاع علىٰ قلوبكم، ومعرفة حقيقة إيمانكم.

﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بالاستقامة والاشتهار بالإيمان ﴿فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ وتثبتوا، وافعلوا بمن يدخل في الإسلام، ومَن يعلنه لكم، كما فعل بكم، واقبلوا منهم كما قُبِل منكم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ وهذا تهديد بعلم الله تعالىٰ بما يخفىٰ، وما يظهر من هذا وذاك، وهو تهديد يفيد النهي عن المسارعة في قتل هؤلاء، والدعوة إلىٰ التثبت في أمرهم، والتحرز والاحتياط في قتلهم.

هذا، ولئن كانت الآية لها سبب خاص نزلت من أجله، فإن العبرة والعمل بعموم لفظها، وليس بخصوص سببها، كما يقول العلماء.

وبخصوص القتال في سبيل الله ـ كذلك ـ أيها الأحبة.. يبين الله عز وجل ـ من باب الحث علىٰ الجهاد في سبيل الله ـ أن المجاهدين لا يستوون عنده مع القاعدين عن هذا الجهاد، إلّا إذا كان قعودهم هذا لضرورة خارجة عن إرادتهم، حيث يقول الله عز وجل:

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾

وهذا بيان لتفاوت طبقات المؤمنين ودرجاتهم عند الله تعالىٰ، بحسب تفاوتهم في

الجهاد في سبيله؛ ليأنف القاعد عنه، ويترفع بنفسه عن انحطاط رتبته عند الله، فيتحرك له رغبة في ارتفاع درجته.

والمعنىٰ: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عن الجهاد، في منزلتهم عند الله مع الذين يجاهدون بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله.

﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ أي: باستثناء أصحاب الأعذار ـ كالمرضىٰ، وأصحاب العاهات، من: عمى، أو عرج، وخلافه ـ من هذه المفاضلة.

ومع ذلك: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾ أي: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ في الآخرة، ﴿عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ بسبب العذر .﴿دَرَجَةً﴾ أي: فضيلة لا يُقادر قدرها، ولا يعلم كنهها، إلَّا الله سبحانه وتعالىٰ.

وذلك: لأن المجاهد باشر الجهاد بنفسه وماله مع النية، وأولو الضرر كانت لهم نية، ولكن لم يباشروا الجهاد، فنزلوا عن المجاهدين درجة.

ولكن مع هذا التفاضل: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: ﴿وَكُلًّا﴾ من المجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ونيتهم، وكذلك القاعدين لعذر، المشاركين بنيتهم، ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾ هذين الصنفين، إنعامًا منه ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: المثوبة الحسنى، وهي الجنة، مع اختلاف منازلهم فيها، لاستوائهما في النية، وزيادة المجاهدين بالمباشرة.

وأما القاعدون من المؤمنين عن الجهاد في سبيل الله لغير عذر، فيقول عنهم رب العزة: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: أن الله تعالىٰ فضل المجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، علىٰ القاعدين عن الجهاد بغير عذر أجرًا عظيمًا.

وكأن سائلًا يسأل: ما هذا الأجر العظيم، الذي فضَّل الله به المجاهدين علىٰ القاعدين عن الجهاد، بغير عذر..؟ ويجيب ربنا تبارك وتعالىٰ بقوله:

﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾

وهذا الأجر العظيم؛ عبارة عن:

١ ـ ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ﴾ أي: درجات من هذا الأجر، أو من الله تعالىٰ، يَفْضُل بها المجاهد علىٰ القاعد عن الجهاد.

أخرج مسلم، والنسائى، وأبو داود، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«.. وأخرىٰ يرفع الله تعالىٰ بها العبد، مائة درجة في الجنة، ما بين كل درجتين، كما بين السماء والأرض».

قال: وما هي يا رسول الله..؟ قال: **«الجهاد في سبيل الله»**.

٢ - ﴿وَمَغْفِرَةً﴾ أي: ومغفرة عظيمة، لمَا يفرط منهم من الذنوب، التي لا يكفرها سائر الحسنات، التي يأتي بها القاعدون، وعلى هذا.. فهي تعد من خصائص المجاهدين.

٣ - ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي: يرحمهم رحمة واسعة.

ثم يقول الغفور الرحيم: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: ﴿غَفُورًا﴾ يقبل العذر، ﴿رَّحِيمًا﴾ يوفر الأجر.

هذا، وقبل أن نترك هذه الآيات الكريمة ننبَّه علىٰ أن: هذه المفاضلات بين المجاهدين وغيرهم تكون في حالة ما إذا كان الجهاد فرض كفاية، وقد قام مَن يكفي من المسلمين به لتحقيق الهدف.

أمَّا إذا كان الجهاد فرض عين، أو لم يقم من المسلمين به، عندما يكون فرض كفاية.. فإن القاعدين عنه يأثمون إثمًا عظيمًا، يستحقون به دخول النار.

لمَّا أمر الله عز وجل بالتبين في الجهاد ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟﴾ [النساء: ٩٤] مراعاة لحال مَن يكتم إسلامه لسبب من الأسباب، وهو مقيم بين الكفار..!!

فقد ناسب أن يبيِّن تبارك وتعالىٰ حكم الإقامة للمسلمين الكفار؛ ليرفع همم أهل الإيمان إلىٰ الهجرة من دار الكفر إلىٰ دار الإسلام. حيث يقول المولىٰ جل وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾

حوار بين مَن هم ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾، وبين الملائكة، والذين ظلموا أنفسهم هؤلاء هم الذين أسلموا، ولم يهاجروا من مكة إلىٰ المدينة، مع أن الهجرة كانت ركنًا أو شرطًا في الإسلام، ثم نسخ، ولذلك فهم كفرة، أو عصاة.

ويدخل فيهم الآن كل مَن يقيم في دار كفر لسبب من الأسباب، ولا يستطيع أن يقيم أحكام دينه، ولا أن يؤدي فرائض الله.

هؤلاء تقول لهم الملائكة موبخة: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾ أي: أكنتم مع المسلمين، أم مع المشركين، الذين كنتم تطيعونهم، وتجاملونهم بترك أحكام الإسلام؟.

فيجيبون قائلين: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: كنا عاجزين عن الهجرة، عاجزين عن إقامة الدين، فتقول لهم الملائكة على سبيل التوبيخ: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾..؟ أي: أنكم كنتم قادرين على الهجرة، والخروج من دار الكفر إلى بلد لا تُمنعون فيها من إظهار دينكم؛ حيث إن الإنسان لا يعدم حيلة إن صمَّم على شيء.

يقول الله تعالى، قوله الفصل وحكمه العدل: ﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ لتركهم الهجرة، وتركهم إقامة أحكام الدين.

﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ ومقرًا وسكنًا، يصيرون إليه ويقيمون فيه.

ويلاحظ: أن الآية تدل على أن مَن لم يتمكَّن من إقامة دينه في بلد كما يجب، وعلم أنه يتمكن من إقامته في غيره، وجبت عليه الهجرة.

وبعد أن اعتذر هؤلاء كذبًا بأنهم كانوا ﴿مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾...!!

بيَّن الله عز وجل حكمه في المستضعفين حقيقة، ولطفه بهم، وكرمه معهم، حيث يقول الحق سبحانه:

﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾﴾

أي: يُستثنى من الذين لم يهاجروا، فلا يدخلون جهنم: المستضعفون حقيقة، سواء كانوا من الرجال أو النساء أو الولدان الذين ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ في الخروج والهجرة، إما لفقرهم، وإما لعجزهم.

﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ أي: ولا معرفة لهم بوسائل الحيل ومسالكها.

﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾

وهذا وعد من الله أن يعفو عنهم، وأن يغفر لهم لعجزهم حقيقة.

بعد أن بيَّن الله سبحانه وتعالىٰ، أن مَن أقام بين ظهراني الكفار، وليس متمكِّنًا من إقامة الدين والعمل بأحكامه وتعاليمه، في الوقت الذي هو قادر فيه علىٰ الهجرة من بينهم، ومفارقتهم إلىٰ حيث يقيم دينه، ويعمل بأحكامه، فهو ظالم لنفسه !!

بعد ذلك بدأ في الحضّ علىٰ الهجرة، ورغَّبَ فيها، مبينًا أن المؤمن حيثما ذهب وجد مَنْدوحَةً وملجأً يتحصَّن فيه، ويراغم به أعداء الله، وكذلك رزقًا واسعًا.

حيث يقول الله جل وعلا:

﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾

أي: إن الذي يهاجر في سبيل الله فرارًا بدينه، وبعدًا عما يكره، يُرغم بذلك أنوف قومه، الذين لا يحبون منه ذلك، كما أنه يجد سعة في رزقه، وإظهار دينه ونصرته، وراحة في صدره، حيث يشعر بالأمن بعد الخوف الذي كان يعاني منه، هذا إذا كتبت له النجاة منهم، أو ظل حيًّا.

﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

يعني: أن ﴿مَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا﴾ حيث أمر الله ورسوله، ثم:

﴿يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ﴾ وهو في الطريق إلىٰ مقصده، ولو كان حتىٰ خارج باب بيته، فقد حصل له الأجر من الله تعالىٰ علىٰ هجرته هذه، حيث إن الأعمال بالنيات.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: يغفر سبحانه وتعالىٰ بالعمل، ويرحم بالنيّة.

وقد قال العلماء: كل هجرة.. لطلب علم، أو حج، أو جهاد، أو فرار إلىٰ بلد يزداد فيه طاعة، أو قناعة، أو زهد، أو ابتغاء رزق طيب، فهي هجرة إلىٰ الله ورسوله، وإن أدركه الموت وهو في طريقه، فقد وقع أجره علىٰ الله.

وبعد: وبعد أن أمر الله بالجهاد، ورغَّب في الهجرة، أردف ذلك ببيان كيفية الصلاة عند الضرورات، من باب التيسير والتخفيف فقال الله عز وجل:

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: إذا سافرتم لأي غرض، وبأية وسيلة، في الأرض أو في البحر أو في الجو.

﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أي: يباح لكم دون حرج، ودون إثم يقع عليكم، بل لكم ﴿أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: تتخففوا من بعض ركعاتها، حيث تصلون الرباعية ركعتين فقط.

وذلك ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ أي: إن خشيتم أن يقصدكم الكفار بقتل أو جرح أو خلافه.

ولهذا جعل بعض الناس الخوفَ شرطًا لجواز قصر الصلاة.

وليس ذلك لهم ولا منهم بصواب، بل إن القصر لمجرد السفر، كما هو عند أهل السنة، حصل خوف أو لا.

فقد أخرج الإمام مسلم، وأصحاب السنن، وأحمد، عن يعلىٰ بن أمية قال: سألت عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قلت: يقول تعالىٰ: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ وقد أمن الناس.

يعني، وقد زال الخوف، فلمَ القصر..؟ فقال لي عمر رضي الله عنه: عجبتُ مما عجبتَ منه، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: «**صدقة تصدق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته**».

وبهذا.. علم أن قصر الصلاة: يكون في حال الأمن، كما هو في حال الخوف.

﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ وصدق الله تعالىٰ: فما من عداوة أوضح من عداوة الكافر للمؤمن.

هذا، ولأن صلاة السفر هذه، أي: صلاة القصر.. ذكرت في ضمن سياق آيات القتال.. كما أنها ذكرت مجملة دون تفصيل.. فقد بيَّن الله عز وجل كيفيتها في ميدان القتال، وساحة الحرب، قائلًا جل وعلا:

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ

بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾

والخطاب هنا للحبيب ﷺ من باب التشريف، ولكل المسلمين من بعده من باب الأمر إلىٰ يوم القيامة.

والمعنىٰ: إذا أراد جيش المسلمين الصلاة، وأقيمت هذه الصلاة.. ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ أي: فاجعل الجيش طائفتين، طائفة منهم تقوم معك للصلاة، فصل بها.

﴿وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ أي: ليأخذ الجميع سلاحه معه، الذين لا يصلون سلاحهم معهم، والذين يصلون كذلك سلاحهم معهم بما لا يشغلهم عن الصلاة.

﴿فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ﴾ **أي**: فإذا سجدت الطائفة الأولىٰ، فالثانية من ورائها في مواجهة العدو، حتى تكمل الأولى صلاتها.

﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ﴾ أي: الطائفة الثانية التي كانت تحرس، ولم تصل بعد، ﴿فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾ كما صلَّت الطائفة الأولىٰ.

﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ أي: ليأخذ الجيش كله حذره وانتباهه من العدو، كما يأخذ المصلون معهم سلاحهم بما لا يشغلهم عن الصلاة.

وكان كلُّ هذا التفصيل؛ لأن الكافرين لا أمان لهم، ولا تهاون معهم.

﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾.

نعم الكافرون يودُّون لو تغفلون عن أسلحتكم، وتهملون استعدادكم، فيميلون عليكم ميلة واحدة، ويأخذونكم علىٰ غرّة، ويهزمونكم.

هذا.. هو الحكم في صلاة الحرب.

ولكن قد يكون حمل السلاح شاق علىٰ المصلين، لسبب أو لآخر، فما العمل..؟

يقول الحكيم العليم:

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ الله أكبر.. !!

رخص الله للمسلمين المحاربين في وضع الأسلحة، وعدم حملها معهم ساعة الصلاة إن ثقل عليهم حملها؛ بسبب ما يصيبهم من مطر، أو يضعفهم من مرض.

بشرط أن يأخذوا حذرهم وكامل انتباههم من عدوهم؛ لئلا يغفلوا فيهجم عليهم، ويهزمهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ وهذا تقوية لقلوب المؤمنين، حيث يبيّن سبحانه وتعالىٰ ويخبر أنه هو الذي يذلُّ الكافرين ويهينهم.

وفي ذلك إعلام للمؤمنين أن قدرة الله غالبة، وأن الأمر بالحذر، ليس لتوقع غلبة الكفار عليهم، إنما هو من التعبد لله تعالى، وطاعة أوامره عز وجل.

ثم يقول الله تعالىٰ:

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾

أي: فإذا فرغتم من الصلاة وانتهيتم منها، فلا تغفلوا عن ذكر الله تعالى، بل داوموا علىٰ ذكره في جميع الأحوال. كذلك قال تعالىٰ:

﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾

أي: فإذا زال الخوف، أو انتهت الحرب، فأتموا صلاتكم جماعة بطائفة واحدة، حيث إن الصلاة محددة بأوقات معلومة وكيفيات معلومة وفرضيات مؤقتة.

وبعد أن تعرضنا إلىٰ حديث المولى سبحانه وتعالىٰ عن القتال في سبيل الله.

وبعد أن تعرضنا كذلك وعرفنا كيفية الصلاة أثناء الحرب.

وبعد أن نَّبهَنا رب العزة علىٰ عداوة الكافرين للمؤمنين، يختم السياق في هذه الموضوعات، بهذه الآية الكريمة.

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾

يعني: لا تضعفوا، ولا تتوانوا في طلب الكفار وقتالهم، ولا تظنوا أنكم تتألمون من القتال، وما يحدث فيه من جروح، وموت، أنتم فقط، بل هم كذلك يتألمون أيضًا.

وإذا كانوا هم يصبرون عليه، ويواصلون قتالكم.. فلم لا تصبرون مثل صبرهم، بل

أنتم أولى منهم بالصبر والتجلد والتحمل. خاصة وأنكم ترجون من الله الثواب العظيم؛ بسبب ما تجاهدون من أجله، وهو إظهار دين الله علىٰ سائر الأديان، وإعلاء كلمته في دنيا الناس أجمعين، وهم لا يرجون إلَّا باطل الدنيا وزخرفها، واتباع الشيطان والهوىٰ فقط.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ يعلم مصالحكم وأعمالكم، ما تظهرون منها وما تسرون، لا يضيع عنده ثوابها، ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يأمر به، وينهىٰ عنه، فجدوا في الامتثال، لذلك فإن فيه: عواقبًا حميدة، وفوزًا بالمطلوب.

وبعد كل هذا يردّ الله عز وجل.. علىٰ مَن يهمل قضايا الحكم بما أنزل الله.. حيث يبيِّن ـ فيما يلي ـ الحكمة من إنزال الكتاب بالحق علىٰ رسوله ﷺ وهي أن يحكم به؛ حيث إنه يتضمن الحق في خبره، وفي طلبه. إذْ يقول ربنا تبارك وتعالىٰ:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾

أي: أنزلنا إليك يا محمد القرآن، حق من عند الله، متضمن للحق فيما أخبر، وفيما طلب، وفيما شرع لتحكم بين الناس ـ بما عرفك فيه، وأوصىٰ إليك منه ـ في كل أمر من أمور الناس وقضاياهم.

﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ أي: ولا تكن عن العصاة مدافعًا، حيث إن كل عاص لله تعالىٰ خائن.

وعلىٰ هذا، فقد تتهاون في تحرِّي الحق، وأنت بصدد الحكم ـ اغترارًا بقوة بدل الخائنين في الخصومة ـ لئلا تقع في ورطة الدفاع عنهم.

ويؤيد هذا حديث أم سلمة رضي الله عنها الذي يقول فيه المصطفىٰ ﷺ: «**إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إليّ، ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له بنحو ما أسمع منه، فمن قضيت له من حق أخيه شيئًا: فلا يأخذه، فإنما أقطع له به قطعة من النار**».

﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: واستغفر الله من أي: خاطر يخالف هذا التوجيه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾ لمَا يهم به العبد ما لم ينفذه، ﴿رَحِيمًا﴾ حيث لم يكلف أحدًا بما لا يطيق. ثم يقول تعالىٰ مشددًا في هذا النهي:

﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾﴾

هذا خطاب للنبي ﷺ وهو أعدل الناس وأكملهم، من باب المبالغة في تحذير الحكام والقضاة، من هذه الصفة السيئة.

﴿ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ﴾ أي: الذين يعود ضرر المعصية والخيانة وقوة الحجة في الإقناع بما ليس لهم عليهم لا علىٰ غيرهم، حيث إن الله يبغض من اعتاد الخيانة ومارسها وألفها، ورضيت نفسه اقتراف السيئات.

ثم يبيِّن رب العزة أحوال هؤلاء الخائنين، وكشف سترهم، وعاب فعلهم، حتى نحذرهم، ولا يكون ـ أبدًا ـ دفاعاً عنهم.

بقوله جل وعلا: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ﴾ أي: يستترون عن اجتراحهم الآثام من الناس؛ حياءً منهم، أو خوفًا من ضررهم.

﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ أي: ولا يستترون من الله تعالى ويستحيون منه فيتركونها؛ وهو عالم بهم، مطلع علىٰ أسرارهم؛ وذلك: لضعف إيمانهم.

﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ﴾ إذْ يبيتون ويخفون في أنفسهم ما لا يرضىٰ به الله تعالىٰ، هؤلاء.. يتوعدهم ربنا عز وجل علىٰ عظيم جرمهم.

فيقول: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ أي: إن الله حافظ لأعمالهم، محيط بها، لا يعزب عنه مثقال ذرة في السمٰوات ولا في الأرض، فكيف بمن لا يستحيون منه وهم يعصونه، ويدبرون في معصيته؟

ومن رحمة الله تعالىٰ بالمؤمنين أنه يحذِّرهم من مساعدة هؤلاء الخوّانين، أو التعاطف معهم، حيث يقول: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾؟ أي:

افترضوا أنكم دافعتم عنهم في الحياة الدنيا، وهم آثمون.. فمن يدافع عنهم في الآخرة إذا أخذهم الله بعذابه..؟ يعني: لا أحد يدافع عنهم، ولا أحد يكون وكيلًا عنهم في رد عذاب الله لهم.

وبعد ذلك يرغِّب ربنا في التوبة إلىٰ الله من الذنوب.. حيث يقول المولىٰ جل وعلا:

﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾

أي: ومَن يخطئ ويذنب أو يعمل شيئًا قبيحًا يظلم به غيره، أو يظلم به نفسه، ثم يندم ويرجع إلىٰ ربه ويستغفر الله يجد باب التوبة مفتوحًا، وعفو الله في انتظاره، وغفران الله نصيبه ورحمته واسعة، وهذا بيان للمخرج من وبال الذنوب، وترغيب في التوبة إلىٰ اللهِ تبارك وتعالىٰ.

وهناك تحذير عام من ارتكاب الذنوب، واقتراف الآثام ببيان ضررها، يقول ربنا تبارك وتعالىٰ:

﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾

أي: مَن يعمل الإثم، ويرى أنه قد كَسَبه وانتفع به، فإنما كَسْبُهُ وبالٌ عليه، وضررٌ لا نفع فيه.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بمن أذنب، عليمًا بذنبه، ﴿حَكِيمًا﴾ إذْ حرَّم الإثم، وبيَّن عقوبته، ومن حكمته تعالىٰ أنه لا يعاقب بالذنب إلَّا صاحبه.

كذلك: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي: ومَن يعمل خطيئة بلا تعمد، أو إثمًا متعمدًا به قاصدًا له ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا﴾ أي: يتهم بهذا الذنب أو الخطيئة غيره من الأبرياء، ويزعم أن هذا البريء هو الذي فعله، فقد ارتكب بذلك وزرًا وذنبًا واضحًا.

ويلاحظ: أن هذا قد فشا وكَثُر بين الناس في هذا الزمان، فلا حول ولا قوة إلَّا بالله..!! وما ذلك إلَّا لترك هداية الدين وقلة الوازع النفسي والغفلة عن الأوامر والنواهي التي جاءت بها الشريعة الغراء.

هذا وبعد أن ذكر الله عز وجل هؤلاء العصاة، وبيَّن محاولاتهم زحزحة النبي ﷺ، عن الحق..!! يبين ربنا عز وجل فضله ونعمته علىٰ رسول الله ﷺ فيقول عز وجل:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾

أي: إنه بفضله ورحمته عليك صرف نفوس الأشرار، عن الطمع في إضلالك والهمّ بذلك، ومحاولتهم فيه.

حيث إنه: إذا توجَّهت همتهم إلىٰ تلبيس الحق علىٰ شخص، ومحاولتهم صرفه عنه احتاج إلىٰ بعض الوقت لكشف حيلهم، وتمييز تلبيسهم، حتى يظهر الحق، وينجلي الصواب من الخطأ، ومن ثَمَّ مقاومتهم، فيضيع وقت هو في أشد الحاجة إليه، لصرفه في عمل نافع.

ولهذا، تفضَّل الله علىٰ نبيه ﷺ ورحمه بصرف كيد الأشرار عنه، ومحاولتهم إبعاده ﷺ عن صراط الله الذي أقامه عليه.

كما أنه ليست محاولاتهم هذه في صرفك عن الحق إلَّا انحراف منهم هم عن الصراط السوي، وضلال لهم عما هداهم إليه الإسلام.

﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ﴾ أي: إنهم لا يضرونك بشيء مما أرادوه.. إن وقفت عند حدود الله، وعملت بما ظهر لك، ولم يخطر ببالك أن الحق والحقيقة علىٰ خلاف ذلك.

﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ وبهذا يبيِّن الله تعالىٰ عظيم ما خص به محمدًا ﷺ من الفضل، حيث يقول له: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ القرآن «فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم».

﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: السنة المبينة الموضحة، وصدق الله القائل:

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

إضافة إلىٰ ذلك ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ﴾ أي: علَّمك بأنواع الوحي إليك ما لم تكن تعلم من أمور الدين والشرائع، وطرق إبطال كيد الخائنين.

﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ فيما علمك إياه، وفيما أنعم عليك به، وإذْ أرسلك إلىٰ الناس كافة، بشيرًا ونذيرًا، وجعلك خاتم النبيين، واختصك بمزايا لا تدخل تحت الحصر. ولذا.. يجب عليك أن تكون أعظم الناس شكرًا له.

كما يجب علىٰ أمتك مثل ذلك.. ليكونوا ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] قدوة لغيرهم في جميع وجوه الخير، التي تصلح البلاد وتسعد العباد.

أيها الأحبة في الله: في الآية السابقة يبيِّن لنا ربنا عز وجل.. أنه أنزل علىٰ نبينا ﷺ الكتاب والحكمة، وأنه علمه ﷺ ما لم يكن يعلم، وأن فضل الله عليه كان عظيمًا، وهذا كله خير، وهو سبحانه وتعالىٰ: يحدد إطار الخير في أحاديث الناس بعضهم مع بعض. فيقول تبارك وتعالىٰ:

﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾

النجوىٰ والتناجي: هو ما يدور بين الناس من أحاديث.

وقد نفىٰ الله عز وجل الخيرية فيه وعنه، إلَّا في ثلاث حالات، هي:

أن تكون هذه النجوى أمرًا بصدقة.. فهذه فيها خير. والصدقة هنا تشمل: الزكاة المفروضة، وصدقة التطوع.

أو أن تكون هذه النجوىٰ: أمرًا بمعروف.. فهذه فيها خير. والمعروف هنا شريعة الله، ودينه، ومن ذلك القرض الحسن، وإغاثة الملهوف، ونصرة المظلوم، وكل ما تقرّه الشريعة.

أو أن تكون هذه النجوىٰ إصلاحًا بين الناس فهذه ـ ثالثًا ـ فيها خير.

ثم يبيِّن ربنا جزاء المتناجين بهذه الأمور الخيرة وأشباهها.

فيقول: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: مَن تكون نجواه بهذه الأمور، وفي شأنها، وهو مخلص لله تعالىٰ فيها، لا يرجو إلَّا مرضاة ربه سبحانه وتعالىٰ، لا يريد بذلك: رياءً، ولا سمعة، ولا رئاسة: فثوابه عند الله عظيم.

وإذا كان هذا الوعد من الله تعالىٰ للمتناجين ـ فيما بينهم ـ بالخير، فإن وعيد الله تعالىٰ وتهديده للمتناجين بالشر توضحه الآيات التالية.. حيث يقول عز من قائل:

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾

أي: ومَن يخالف الرسول ﷺ، فيما جاء به من القرآن، أو وضَّحه وبيَّنه من السنة النبوية، ويسلك غير الطريق الذي اجتمعت عليه الأمة المحمدية، فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقًا..!! واتبع ـ في ذلك الوقت ـ هواه..!!

يجازيه الله عز وجل علىٰ هذا باستدارجه في الدنيا وتركه ـ بعد هذا الوضوح للحق، واختياره السيء ـ وما اختار، كما يجعل النار مصيره في الآخرة، وذلك لمخالفته الحق، الذي لا يزيغ عنه إلَّا هالك.

ولأن مَن يخالف الرسول ﷺ، ويتَّبع غير سبيل المؤمنين منحرف عن الصراط المستقيم، فإن ربنا عز وجل، يبين أن سبب الانحراف هو اتباع الشيطان، وأن رأس الإنحراف.. هو الشرك بالله، وأنه سبحانه يغفر ما عدا ذلك لمن شاء. فيقول الله تعالىٰ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾

والمعنىٰ: أن الله لا يغفر لمن مات علىٰ الشرك أبدًا، أما ما دون الشرك بالله، فالله عز وجل يغفر جميع الذنوب والخطايا لمن يشاء من عباده.

ولهذا ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ﴾ فقد انحرف عن الصواب و﴿ضَلَّ﴾ في فهمه وتصوراته وسلوكه ﴿ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ عن الحق.

هؤلاء الذين أشركوا، مَن يدعون لقضاء حوائجهم، وتفريج كرباتهم..؟!!

﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗاۖ وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا

﴿مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾

نعم، هؤلاء ما يدعون إلَّا أمواتًا لا تجيبهم، أو إناثًا من الأصنام أو الأبقار، أو الملائكة.. لا تنفعهم، أو أهواء أضلتهم.

وهم في الحقيقة ما يعبدون وما يدعون ﴿إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾ أي: عاريًا عن الخير أغراهم على عبادة الأصنام، أو الكواكب، أو عبادة أهوائهم.

هذا الشيطان ﴿لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ **أي:** جمع هذا الشيطان بين صفتين:

الأولى: أن الله طرده من رحمته، وأخرجه من جنته.

الثانية: أن سعيه شر في شر، حيث قال لربنا عز وجل: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ﴾ أي: لأُغْوِينَّ من عبادك ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ قدرًا معينًا، أبعده عن عبادتك ورحمتك.

بل زاد قائلًا: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ۚ﴾ أي: يقول هذا الشيطان لربنا ـ تبارك وتعالى ـ عن بني آدم ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ أي: أصرفهم عن عبادتك، وصحيح العقيدة، وأشغلهم بالأماني الباطلة عن الدلائل الموصلة إلى الحق، وإلى الصراط المستقيم، وذلك بالوسوسة والتزيين للباطل.

﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ أي: ألقي في قلوبهم الأماني الكاذبة من طول الأعمار، وبلوغ الآمال، وتحقيق الأهداف بغير أخذ في الأسباب، وأشغلهم بالاستعجال في نوال اللذات الحاضرة الآثمة، وأسوِّف لهم التوبة، وأبعدهم عن العمل الصالح.

﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ﴾ أي: آمرهم بارتكاب المناهي ومباشرة المخالفات، مثل: تقطيع آذان الأنعام، وهي ما كان يفعله أهل الجاهلية، وحرَّمها الله في قوله: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ﴾ [المائدة: ١٠٣].

﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ۚ﴾ أي: أصرف الناس عن فطرة الله التي فطر

الناس عليها، وهي الإسلام، أو أجعلهم يرتكبون ما يغيرون به خلق الله لهم، من تشبّه الرجال بالنساء، والنساء بالرجال، والوشم، والنمص، وخلافه.

ولأن مَن يزين له الشيطان هذه الأشياء ويستجيب له فيها ويفعلها، مخالف لأوامر الله وشرعه وفطرته، فقد اتخذ الشيطان وليًّا له، وموجِّهًا لتصرفاته.

ولهذا يحذِّره الله من ذلك قائلًا: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ نعم..أي خسارة أعظم للإنسان من خسارة الدنيا بضياع الهداية، ومن خسارة الآخرة بدخول النار، والعياذ بالله تعالىٰ..؟ لا شيء والله، أبدًا.

هذا الشيطان ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: يزيِّن لهم المعاصي، ويوسوس لهم أن لا جنة ولا نار، ولا بعث ولا حساب.

وما ذلك: إلَّا التغرير بعينه والتزييف الواضح، حيث يريهم الأمر علىٰ خلاف حقيقته، ومن ثمَّ ينخدعون به.

﴿أُولَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ هؤلاء المستجيبون للشيطان، المنخدعون بوسوسته، المنفذون لإضلاله لهم، مستقرهم جهنم ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ لا مفر منها، ولا مصرف لهم عنها، بل هي دارهم ومقرهم.

وإذا كان هذا جزاء المستجيبين لغواية الشيطان وإضلاله، فإن جزاء مَن يحذره، ويبتعد عن غوايته، ويتَّبع تعاليم ربه.. توضحه الآية التالية في قوله تعالىٰ:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾

أي: إن الذين وثقوا في ربهم، وعملوا بشرعه، واتبعوا تعاليمه، وقاموا بعمل الصالحات التي تسعد العباد، وتصلح البلاد، وخالفوا الشيطان، فلم يطيعوه بالكفر، أو عمل السوء، هؤلاء سندخلهم ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ بلا زوال لهم عنها، أو انتقاص لهم بفضل منها.

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ﴾ أي: هذا الفضل.. وعد من الله تعالىٰ لهم، وإنعام منه سبحانه عليهم، ووعد الله واقع لا محالة.

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ يعني: ليس هناك أصدق من الله تعالىٰ.. في وعد، ولا في قول أبدًا.

ولذلك كان رسول الله ﷺ، يقول في خطبته: «**إن أصدق الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار**».

لمَّا نزلت هذه الآية الكريمة، قال بعض أهل الكتاب للمسلمين: نبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم، فنحن أولىٰ بالله وثوابه منكم.

وقال بعض المسلمين لأهل الكتاب: نبينا خاتم النبيين، وكتابنا يقضي علىٰ سائر الكتب، ونحن آمنا بكتابكم ولم تؤمنوا بكتابنا، فنحن أولىٰ بالله، وثوابه منكم.

فأنزل الله تعالىٰ قوله الكريم:

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾

أي: ليس أمر الثواب من الله تعالىٰ بأمانيكم يا مسلمون، ولا بأماني أهل الكتاب، ولا بمجرد التفاخر والتباهي، بدون عمل وطاعة.

بل هذا الأمر وفق القاعدة التالية: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي: مَن يشرك بالله تعالىٰ، أو يرتكب المعصية أيًا كانت يعاقَب عليها الجزاء العادل، هذا من جهة.

ومن جهة أخرىٰ ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ يتولى أمره، ويدافع عنه، أو نصيرًا يقيه عذاب الله وعقابه.

كذلك: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ **أي**: ومَن يعمل من الصالحات، قدر ما يطيق، سواء كان ذكرًا أو أنثىٰ وهو مؤمن غير كافر: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ فقط ﴿يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ جزاءً لهم.

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ لا هؤلاء ولا هؤلاء ﴿نَقِيرًا﴾ أي: أَيَّ ظلم ولو كان صغيرًا، مثل: النقرة في ظهر نواة التمرة.

وبهذا ظهر واضحًا: أن الإيمان ليس بالتمني، ولا بالتحلِّي، ولكن ما وقر في القلب وصدقته الأعمال.

ثم يبيِّن ربنا عز وجل أنه لا أحد أحسن دينًا ممن اجتمع له أمران:

إخلاص العمل لله، واتباعه في هذا العمل لشرع الله. حيث يقول الحق تبارك وتعالىٰ:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾

نعم، لا أحد أحسن دينًا ممن اجتمع له الإسلام والإحسان، والاتباع لملة إبراهيم عليه السلام، الذي كان مائلًا إلىٰ الحق، تاركًا الأديان الباطلة.

﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ يعني: وقد اصطفىٰ الله إبراهيم عليه السلام، وجعله خليلًا له، لموافقته لله تعالىٰ، ومنَّ عليه بسلامة الفطرة، وقوة العقل، وصفاء الروح، وكمال المعرفة، وصدق التوحيد.

وفي هذا تأكيد لوجوب اتباع ملَّته عليه السلام وسلوك طريقته؛ حيث إن مَن أكرمه الله باتخاذه خليلًا، كان جديرًا أن تُتبع ملته، ويُقتدى به في طريقته.

هذا ولأن اتخاذ الله إبراهيم خليلًا كان تشريفًا له، ومكافأة له علىٰ حسن عبوديته، وليس لاحتياج الله إلىٰ ذلك؛ لأنه منزه عن ذلك.. إذْ هو المالك لكل شيء.

فقد قال سبحانه وتعالىٰ:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾

أي: كل ما فيهما ملك له، ومن خلقه، مهما تعدَّدت المخلوقات، واختلفت صفاتها، إذْ جميعها عابدة له، خاضعة لأمره ومشيئته.

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ لا تخفىٰ عليه خافية، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السمٰوات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر.

السورة التي نفسِّر آياتها الكريمة ـ كما تعرفون ـ هي سورة النساء، وقد بدأت ـ كما رأينا سابقًا ـ بذكر الأحكام المتعلِّقة بالنساء واليتامى والقرابة.. إلخ.

ثم من قوله تعالىٰ: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء: ٣٦] الآية، إلىٰ هنا، كان الحديث عن أحكام عامة في أسس الدين، وأصوله، وأحوال أهل الكتاب، والمنافقين، والقتال.

ثم بعد ذلك يعود الكلام من الآية الآتية إلىٰ بيان أحكام خاصة بالنساء.

وكأن هذا الفاصل الطويل للإيحاء بأن أحكام النساء هي من أسس هذا الدين، وأن الاهتمام بها هي من الاهتمام بهذا الدين. حيث يقول الله تعالىٰ:

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾

أي: ويطلبون منك الفتيا لبيان الأحكام التي لا يعرفونها ويحتاجون إليها بخصوص النساء. فإذا ما سألوك فالجواب ما يلي: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ أي: قل لهم إن ما تطلبون معرفته بخصوص النساء، وأجيبكم عنه، وأفتيكم به هو من الله، ومن وحيه إليّ. ولذلك فهو واجب الاتباع والامتثال والطاعة.

﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ أي: وجواب أسئلتكم كذلك موجود فيما يتلىٰ عليكم في القرآن الكريم في حق اليتامىٰ، وقد ذكر ذلك في قوله تعالىٰ في أول السورة ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [النساء: ٣] الآية.

كذلك: ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ﴾ أي: اليتامىٰ حيث كانوا في الجاهلية يورثون الرجال القوامين بالأمور، دون الأطفال والنساء.

﴿وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ﴾ أي: وأن تعدلوا في الميراث والمال.

ويلاحظ: أن الخطاب هنا للأئمة وأولياء الأمور الذين بيدهم التنفيذ، حتىٰ ينظروا لهم، ويوفوهم حقوقهم بالعدل، دون بخس أو نقصان.

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ يعني: كل خير تفعلوه عامة، وللنساء واليتامى خاصة، فإن الله به عليم، يجازيكم عليه، وكل شر كذلك ـ بالضرورة ـ يجازيكم عليه.

هذا.. ومن الجواب أيضًا علىٰ استفتائهم إياك في شأن النساء، مما لم يتقدم ذكره، ما يلي:

﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾

يلاحظ: أنه قد سبقت في هذه السورة آية تحدثت عن خوف الرجل من نشوز زوجته، واتضح العلاج لذلك هناك، في الآية الرابعة والثلاثين.

وهذه الآية تتحدَّث عن خوف المرأة من نشوز زوجها عليها أو إعراضه عنها، وعلاج ذلك.

فإذا ما حدث هذا ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ أي: فلا إثم ولا حرج ولا ملامة أن يتصالح الزوجان فيما بينهما؛ لتستمر الحياة الزوجية، وتدوم العشرة بالمعروف.

ويكون هذا التصالح بأن تتنازل الزوجة ـ عن طيب خاطر ـ لزوجها عن القسمة بينها وبين زوجاته الأخريات أو عن بعضها، أو تتنازل له عن بعض المهر الذي دفعه أو كله، أو تتنازل له عن نفقتها، أو بعضها، أو غير ذلك مما يرضيه، ولا يخالف شرعًا؛ لتبقى في عصمته مكرمة.

﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ نعم، والصلح بينهما، واستمرار الحياة خير من الخلافات أو الفرقة بينهما.

﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ يعني: هذا الصلح بالتنازل صعب؛ لأن التنازل ضد طبيعة الأنفس، حيث إن الشح، وعدم التنازل.. غالب عليها ومتمكِّن منها.

وكل واحد من الزوجين في هذه الحالة يطلب ما فيه راحته ومصلحته وحده.

ولذلك. يحبِّب الله في هذا الصلح، مع إحسان كل طرف منهما للآخر، فيقول للرجال:

﴿وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ يعني: وإن تحسنوا ـ أيها الرجال ـ بالإقامة مع نسائكم، وإن كرهتموهن، وأحببتم مفارقتهن، وتصبروا علىٰ ذلك مراعاة لحق الصحبة، وتتقوا النشوز، وتبعدوا عن الإعراض، وما يؤدي إلىٰ الأذىٰ والخصومة، فإن الله عليم بإحسانكم وصبركم وتقواكم، وسيثيبكم علىٰ ذلك خير الجزاء. علىٰ كل حال.. وكما قال تعالىٰ:

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾

أي: لن تستطيعوا العدل التام بين النساء، حتى ولو كنتم حريصين علىٰ تحقيق ذلك، إلَّا في الأمور التي تملكونها من النفقة و الكسوة والمبيت.

أما الحب والرغبة في الجماع، وغير ذلك.. فهي من أعمال القلوب، والقلوب بيد الرحمٰن يقلِّبها كيف يشاء، فلا مؤاخذة عليكم فيها.

وكان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه، ويعدل.

لكن إذا لم يكن العدل المطلق ممكنًا ﴿فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ﴾ أي: فلا تجوروا وتظلموا المرغوب عنها، فتتركوها كالمعلقة، لا هي مطلقة، ولا هي ذات زوج.

﴿وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يعني: وإن أصلحتم في أموركم، وعاملتموهن بالعدل فيما تملكون، واتقيتم غضب الله عليكم في جميع الأحوال، فإن الله يغفر لكم ما لا تملكونه من أحوال قلوبكم، ويرحمكم فلا يعاقبكم.

فإن لم يصطلحا، ورغبا في الفرقة بينهما، فلا مانع من ذلك. بدليل قوله تعالىٰ:

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ أي: وإذا تفرقا بالخلع أو بتطليقه إياها وإيفائه لها كل حقوقها، وكان فراقًا بالمعروف.

﴿يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ﴾ أي: يغن الله كلًا منهما من غناه، بأن يرزقه ـ إن شاء ـ زوجًا خيرًا من زوجه، وعيشًا أهنأ وأهدأ من عيشه.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ واسعًا في عطائه بلا حدود، حكيمًا في شرعه؛ حيث أذن بالطلاق والتسريح بإحسان.

وفي النهاية يبيِّن الله تعالىٰ أن الذي أمر به من العدل والإحسان إلىٰ اليتامىٰ والنساء إنما هو لمصلحة المكلفين، والأحسن لهم في الدنيا والآخرة، حيث إنه المالك لكل شيء، والغني عن كل شيء، يقول الله تعالىٰ:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾﴾

ثم يبيِّن كذلك أن ما أمر به من تقوىٰ الله شريعة قديمة، لم يلحقها نسخ أو تبديل.

حيث يقول: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ﴾ أي: أن الوصية بتقوىٰ الله والإلتزام بشرعه وصية دائمة لنا، وللأمم من قبلنا، ولستم يا أمة محمد مخصوصين بها.

وكما أُمر مَن قبلنا بالتقوىٰ، وأُمرنا بها كذلك، فقد قال لنا ولهم: ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ أي: غنيًّا عن خلقه، وعن عبادتهم، بل هو مستحق لأن يُحمد سبحانه وتعالى؛ لكثرة نعمه، وإن لم يحمده أحد.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾﴾

وإذا كان كذلك، فلا تتكلوا علىٰ غيره، واتخذوه وحده وكيلًا لكم في كل شؤونكم.

ثم يخوِّف ربنا عز وجل من عدم طاعته وعدم تقواه، وعدم التوكل عليه وحده، وعدم الإلتزام بشرعه. إذ يقول جل جلاله:

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾

يعني: إن شاء يعذِّبكم عذاب استئصال، يبيدكم به، إن لم تلتزموا بشرعه، ويأت بآخرين من غيركم، يعبدوه، ويتقوه.. وليس ذلك علىٰ الله بعزيز، فهو بالغ القدرة علىٰ كل شيء.

ثم يرغِّب الغفور الرحيم الكريم فيما عنده من الكرامة.. فيقول جل وعلا:

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾

أي: مَن كان يريد بعمله وحاله وقلبه واعتقاده ثواب الدنيا فقط، فعليه أن يعدل قصده ورغبته وإرادته، حتى يكون عمله للدنيا وللآخرة، ولو فعل ذلك ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۚ﴾ ينعم عليه بهما.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ سميعًا للأقوال بصيرًا بالأفعال؛ يعرف مَن يريد الدنيا فقط، ومَن يريد الدنيا والآخرة.

ثم يبيِّن ربنا ـ تبارك وتعالىٰ ـ أن كمال سعادة الإنسان في أن يكون قوله لله، وفعله لله، وحركته لله، وسكونه لله. حيث يقول عز وجل:

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾

أي: كونوا مجتهدين في اختيار العدل وإقامته، محترزين عن ارتكاب الميل، والجور والظلم.

ومن العدل أن تكونوا ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ﴾ أي: كونوا مقيمين شهادتكم لوجه الله، ولأجل مرضاته، حتىٰ ولو كانت هذه الشهادة أو الإقرار بالحق والعدل وبالًا علىٰ أنفسكم، أو الوالدين والأقربين، بما تتوقعون من ضرر سلطان ظالم أو غيره.

واعلموا أن المشهود عليه ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ﴾ يعني: إن يكن المشهود عليه غنيًّا، فلا يمنعكم غناه عن الشهادة عليه طلبًا لمرضاته، وكذلك: إن كان المشهود عليه فقيرًا، فلا يمنعكم فقره من الشهادة عليه رفقًا به، وترحمًا عليه.

لأن الله تعالىٰ أولى برعاية الفقراء والأغنياء، أما أنتم فواجبكم إقامة شهادة الحق، دون نظر إلىٰ الغنىٰ أو الفقر. ولذلك .﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ﴾ أي: فلا تتبعوا هواكم في حب هذا أو بغض ذاك علىٰ عدم العدل، والامتناع عن الشهادة لإقامة الحق لوجه الله.

﴿وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي: فإذا حرَّفتم الشهادة، ولويتموها عن الحق أو أعرضتم عن أدائها، فإن الله بعملكم هذا خبير، فيجازيكم على ما فعلتم.

وفي هذا من التهديد والتخويف من تغيير الشهادة أو تحريفها أو كتمانها.

ونظرًا لأن الإنسان لا يكون قائمًا بالقسط، شاهدًا على نفسه بالحق، إلَّا إذا كان قوي الإيمان، شديد الثقة في دينه. ولذلك يقول ربنا تبارك وتعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾

والمعنى: يا أيها الذين آمنوا اثبتوا على الإيمان بالله ورسوله، والقرآن، والكتب السماوية التي أنزلت قبله، وكونوا على ثقة في هذا الدين، وصلاحيته لإصلاح الأمم، وتحقيق نهضتها ودوام رقيها إذا اهتدت به، وعملت بتشريعاته، وأقامت أركانه، وطبقت تعاليمه.

ثم بيَّن ربنا جل وعلا أن مَن يفقد الثقة في هذا الدين، ويكفر بركن من أركانه.. فقد خرج عن طريق الهدى، وضل سواء السَّبيل.

حيث يقول: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ لأن مَن يكفر بشيء من هذه الأركان، فقد كفر بالجميع، وضل طريق الصواب.

هذا.. ولمَّا رغَّب ربنا عز وجل في الإيمان، ودعا إلى الثقة فيه، والطمأنينة به، بيَّن فساد طريقة مَن يكفر بعد الإيمان. فقال الله عز وجل:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾﴾

هذه الآية تبين حال قوم من أهل الضلال وتوضح فساد تصرفهم؛ حيث آمنوا في الظاهر نفاقًا، وكان الشك والكفر قد استحوذ على قلوبهم، ولم يجعل فيها استعدادًا للفهم ﴿فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥].

ولهذا لم يمنعهم ذلك من الرجوع إلىٰ الكفر مرة بعد أخرىٰ، إذ لم يفهموا حقيقة الإيمان، ولا ذاقوا حلاوته، ولا عرفوا فضائله، ولا أُشربت قلوبهم حبه، حتىٰ ماتوا علىٰ ذلك. هؤلاء لا يغفر الله لهم، ولا يجعل لهم فرجًا ولا مخرجًا مما يصيرون إليه من العذاب الأليم المقيم.

وبعد الحديث عن أهل الإيمان، والحديث عن أهل الكفر.. تحدَّثنا الآيات الكريمة عن أهل النفاق، فيقول الحكيم الخبير:

﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾

وهذا وعيد وتهديد شديد للمنافقين، وبداية مخيفة في صدر الحديث عنهم، وفيها تهكُّم بهم وتوبيخ، حيث إن البشارة لا تستعمل غالبًا إلَّا في الخير.

ما أوصاف هؤلاء المنافقين الذين يبشِّرهم ربهم بهذا العذاب الأليم..؟

ويكون الجواب: إنهم ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ﴾ أي: إن المنافقين هم الذين يتخذون الكافرين المعادين للمؤمنين أولياءَ وأنصارًا، يحتمون بهم، ويلجئون إليهم، في الوقت الذي يتركون فيه ولاية المؤمنين، بل يمالئون الكفار، ويساعدونهم علىٰ المؤمنين، اعتقادًا منهم أن الدولة والغلبة ستكون للكافرين .

وصدق الله تعالىٰ إذْ يقول: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ [المائدة: ٥٢]

ولكن ما الذي يدفعهم إلىٰ هذه الموالاة للكافرين؟ ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾ أيريدون بهذه المولاة للكافرين.. العزة والجاه، والحماية لأنفسهم في الدنيا؟.

ضلَّ عملهم، وخاب سعيهم، وضاع هدفهم.

﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ يعطيها لمن يشاء من عباده في الدنيا والآخرة.

ولذلك فعلى مَن يريد العزة والقوة أن يطلبها منه تعالىٰ بصادق إيمانه، وصحيح اتِّباعه لشرع الله. وقد آتاها الله للمؤمنين حينما اهتدوا بكتابه، وساروا علىٰ نهجه وتشريعه.

ولمَّا أعرضوا عن الهداية ذلوا وخضعوا لعدوهم، بل صار منهم منافقون يوالون الكافرين؛ يبتغون عندهم العزة وما هم لها بمدركين.

حقًّا: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

قال المفسرون لكتاب الله تعالىٰ: إن المشركين بمكة كانوا يخوضون في القرآن، يستهزئون به، والمسلمون يسمعون، ولا يستطيعون إنكارًا لهم ولا ردًّا عليهم، فنزل قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦٨].

فلما انتقلوا إلىٰ المدينة كان أحبار اليهود يفعلون فعل المشركين، في الوقت الذي يجلس معهم، ويستمع إليهم بعض المنافقين.

ولذلك وجَّه الله النهي عن مجالسة مَن ينتقص الدين، ويزدري أحكامه وتعاليمه.

فقال تعالىٰ مذكرًا بما نزل قبل ذلك:

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾

وبهذا حرَّم الله الجلوس في المكان الذي يكفر فيه بآيات الله ويستهزأ بها، لمن لا يستطيع الرد، أو دفع هذا المنكر.. فإن جلستم ورضيتم بذلك: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ **أي**: إذا جلستم مع الكافرين والمنافقين، ورضيتم بما يقولون في آيات الله، ويستهزئون بها، وأقررتموهم علىٰ ذلك فقد شاركتموهم في الذي هم فيه، ومَن شارك الكافرين في كفرهم؛ فقد استحق أن يشركه الله معهم، ويجمع بينهم في نار جهنم أبدًا.

ثم وصف الله المنافقين بوصف آخر، فقال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾!!

يعني: من صفاتهم الخسيسة أنهم يتربصون بالمؤمنين دوائر السوء، وينتظرون زوال دولة الإسلام، وظهور دولة الكفر وانتصارها على المسلمين، ولكن لنفاقهم يخفون ذلك.

وإذا رأوا نصرًا للمسلمين يتوددون إليهم، بالتظاهر بأنهم معهم، وإذا رأوا نصراً للكافرين ـ أحيانًا ـ يتوددون إليهم، ويقولون لهم: لقد ساعدناكم في الباطن، وخذلنا المسلمين عنكم حتى انتصرتم عليهم.

وهكذا يصانعون المسلمين إن كانت لهم الغلبة، ويصانعون الكافرين إن كانت لهم الغلبة. ليأمنوا الجميع، ويتقربوا عند الجميع، ويحظوا عند هؤلاء وهؤلاء بالمكانة. وما ذاك إلَّا لضعف إيمانهم، وقلة يقينهم، وفساد طبيعتهم.

ولذلك يهدِّدهم الله تعالى قائلًا: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ **أي**: يحكم الله ويفصل يوم القيامة بين المؤمنين الصادقين، وبين المنافقين، حكمًا يليق بشأن كل منهما، من الثواب والعقاب، فيثيب أحباءه ويعاقب أعداءه.

أما في الدنيا، فالحكم والمعاملة بحسب الظاهر، كما جاء في الحديث الشريف من قوله ﷺ : «.. **فإذا قالوها** ـ أي لا إله إلا الله – **فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم** ..».

مع كل هذا ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ أي: إن المؤمنين ما داموا متمسكين بدينهم، متبعين لأمره ونهيه، قائمين ما يستدعيه الدفاع عن الدين وأهله، من: أخذ الأهبة، وإعداد العدة، وامتلاك القوة، فلن يغلبهم الكافرون، ولن يكون لهم عليهم سلطان.

وما غُلب المسلمون على أمرهم إلَّا بسبب تركهم هدي كتاب ربهم، وتركهم أوامر دينهم، وراء ظهورهم نسيًا منسيًّا.

ولذلك غُلبوا بعد عزة، ودخل عليهم الكفار في عقر دارهم، وامتلكوا بلادهم، وتحكموا في أمورهم، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ثم يكشف الله خبث المنافقين، وخيبة أملهم، مهددًا لهم.. إذ يقول جل وعلا:

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾

أي: إنهم حينما يخادعون الرسول ﷺ، أو المؤمنين بإظهار الإيمان، وإخفاء الكفر.. فهم يخادعون الله تعالىٰ، والله سبحانه وتعالىٰ مجازيهم علىٰ هذا الخداع بأشد أنواع العقوبات.

وعبارة: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ من باب المشاكلة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤]، وإلَّا فالخداع والخديعة ـ وهي من الكذب ـ مستحيلة علىٰ الله تعالىٰ بالمعنىٰ الذي يستعملونه، والذي نعرفه من معنىٰ اللغة.

ويبيِّن لنا ربنا ـ تبارك وتعالىٰ ـ صفة أخرىٰ من صفاتهم الذميمة، فيقول:

﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

يعني: أنهم إذا قاموا إلىٰ أشرف الأعمال ـ وهي الصلاة ـ قاموا كسالىٰ؛ لأنهم لا نيّة لهم فيها، ولا إيمان لهم بها، ولا خشية في شأنها، ولا تعقُّل لمعانيها، بل لا يذكرون الله فيها، ومن ثَمَّ يقومون إليها كسالى، وهذه صفة ظاهرهم في أدائها.

أما صفة باطنهم فهي فاسدة، حيث لا إخلاص لهم فيها، إنما يؤدونها مراءاة للناس، ومصانعة لهم بها، وهم عنها ساهون، وعما يراد بهم من الخير معرضون.

ثم يوضح الله عز وجل لنا صفة سيئة خطيرة من صفاتهم كذلك.

فيقول: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: أنهم حائرون مضطربون، يميلون تارة إلىٰ المؤمنين، وتارة إلىٰ الكافرين، فهم يدورون مع منافعهم ومصالحهم حيث تكون، ولذلك فهم ضالون.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ أي: لن تجد له طريقًا واضحًا، وسلوكًا مستقيمًا، ولا هداية إلىٰ الصواب.

وبعد أن اتَّضحت حال المنافقين وصفاتهم، وبعد أن علَّمنا الله أن أساس نفاقهم هو موالاة الكافرين، ينهىٰ المؤمنين عن موالاة الكافرين، كما فعل ويفعل المنافقون.

حيث يقول الله العليم الحكيم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾

نهي واضح وصريح.عن مصاحبة الكافرين ومصادقتهم ومناصحتهم والتودد إليهم، وإفساد أشرار المؤمنين إليهم.

وإن فعلنا فقد أخطأنا.. ويعاتبنا الله علىٰ ذلك، ويهدِّدنا بعقابه، قائلًا: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ يعني: أتريدون وتحبون مخالفة أوامر الله، وارتكاب ما نهاكم عنه، فتستحقّون العقوبة والعذاب من الله علىٰ ذلك..؟ هذا لا يليق بكم أيها المؤمنون أبدًا.

كما لا ينبغي أن تكونوا مثل المنافقين، ولا تعاقبوا مثل عقابهم.. أتدرون أين المنافقون، وكيف عقابهم..؟

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾

إن المنافقين بسبب سلوكهم وكفرهم يعذَّبون في أسفل النار حيث العذاب الشديد، لا يموتون فيستريحون، ولا يخرجون منها أبدًا.

وفوق ذلك فلا ناصر لهم ينقذهم مما هم فيه، ويخرجهم من هذا العذاب الأليم. هذا مصيرهم، فلا تكونوا أيها المؤمنون مثلهم.

ثم يفتح الله باب رحمته لمن يتوب، ويعود إلىٰ الله راجيًا عفوه وغفرانه، من الكافرين أو المنافقين.

حيث يقول الرحيم الكريم: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ﴾ أي: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: يعذبون فيها، إلَّا مَن اتصف منهم بهذه الصفات:

١ ـ ﴿تَابُواْ﴾ في الدنيا عن كفرهم ونفاقهم، وآمنوا قبل موتهم، ومَن تاب، تاب الله عليه.

٢ ـ ﴿وَأَصْلَحُواْ﴾ أعمالهم السيئة، وعملوا الصالحات.

٣ ـ ﴿وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ في جميع أمورهم وأحوالهم.

٤ ـ ﴿وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ بدلًا من الرياء.

عندئذٍ يكونون مع المؤمنين الصادقين، وينالون من الجزاء الحسن ما ينال المؤمنون.

﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وهم أيضًا.. يؤتيهم الله أجرًا عظيمًا؛ لأنهم صاروا مؤمنين.

وبالنسبة لموضوع العذاب.. فإن الله لا يعذب العباد إلَّا بذنوبهم، كما أنه لا يعذب مَن آمن به، وشكر نعمه، وهو الغني عن العالمين. يقول الله تبارك وتعالىٰ:

﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾

أي: لا يعذب الله أحدًا من خلقه انتقامًا منه، ولا طلبًا لنفع، ولا دفعًا لضر؛ فهو الغني عن كل أحد، المنزَّه عن جلب منفعة له، أو دفع مضرة عنه، بل إن العذاب ـ إن حدث ـ فهو جزاء الكفر بأنعم الله.

والله ـ أبدًا ـ لا يعذِّب مَن آمن به، وشكر نعمه، سبحانه وتعالىٰ.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ أي: يجعل ربنا عز وجل ثواب المؤمنين الشاكرين، بحسب علمه بأحوالهم.

كما أنه سبحانه يعطيهم من الدرجات أكثر مما يستحقون، بفيض كرمه، جزاءً علىٰ شكرهم وإيمانهم وتفضلًا منه تعالىٰ عليهم، كما قال تعالىٰ:

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

قد تبيَّن لنا ـ فيما سبق ـ شناعة قبائح المنافقين، وشدة إيذائهم للمؤمنين، وأصبح واضحًا ـ بسبب هذه الإيذاءات ـ أن المؤمنين مظلومون من المنافقين.

ومن هنا يجوز للمؤمنين ذكر سيئات المنافقين، وإيذاءاتهم لهم جهرًا، ولهذا يقول الله تعالىٰ:

﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾

في هاتين الآيتين الكريمتين يعلِّمنا رب العزة ـ سبحانه وتعالىٰ ـ ألَّا ندعو علىٰ أحد إلَّا إذا ظلمنا، وألَّا نتكلم علىٰ أحد إلَّا إذا ظلمنا.

ويحثّنا تبارك وتعالىٰ إلىٰ العفو حتى في مثل هذا. حيث إن من صفاته سبحانه العفو مع كمال القدرة.

ثم بيَّن أنه، - عز وجل - إن عاقب لا يعاقب إلَّا بعد استحقاق العذاب.

ومن هنا فليحذر كل أحد عقوبته العادلة إن كفر أو نافق، أو عصىٰ.

ويصير المعنىٰ: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ من أحد أبدًا ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ فإنه يباح له دون أن يعاقبه الله علىٰ ذلك.

إذْ يباح له أن يقول: سرق مالي، أو سبني، أو آذاني، ويدعو عليه دعاءً جائزًا، بقدر ظلمه له، فلا يدعو عليه بخراب داره، ولا بالهلاك، بل يقول: اللهم خلِّص حقي منه، أو جازه بقدر ظلمه لي، كما لا يجوز أن يدعو عليه بسوء الخاتمة، أو الفتنة في الدين.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ أي: ﴿سَمِيعًا﴾ لما يقال من الظالم والمظلوم، وهو السميع لكل ما يقال من كل أحد.

﴿عَلِيمًا﴾ بما يفعل، وما يحدث من الظالم والمظلوم، وهو العليم بكل ما يفعل من كل أحد. وفي هذا وعد للمظلوم بالنصر والخير، ووعيد للظالم بالهزيمة والعقاب.

وبعد إقرار هذا الحق من الله تعالىٰ للمظلوم أن يجهر بشكواه، وأن يرفع مظلمته، يحث عز وجل المؤمنين ويدعوهم إلىٰ الأفضل، وهو عدم الجهر بالسوء من القول، وعدم الدعاء علىٰ الظالم، بل إلىٰ العفو عنه.

إذْ يقول: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ﴾: أي: فهو أولى لكم، وأليق بكم، وعنوان لمكارم أخلاقكم.

حيث إن الله تعالىٰ مع كمال قدرته علىٰ الانتقام من العصاة، يُكثر العفو عنهم.

وصدق الله إذْ يقول: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾.

فعليكم إذًا أن تقتدوا بسنَّته، وأن تتمثَّلوا بعفوه وكرمه، مع قدرته.

ففي الحديث من قوله ﷺ : **«ما زاد الله عبدًا بعفو إلَّا عزًا، ومَن تواضع لله رفعه»**.

وبهذا يظهر جَليًّا، أن من أخلاق المؤمنين ترك السوء، والعفو عمن ظلمهم.

وبعد أن بيَّن رب العزة طرفًا من معاملة الخلق مع بعضهم البعض، تعود الآيات الكريمة إلىٰ قضية الإيمان؛ ليقرر فيها المولىٰ سبحانه كفر من كفر بالله، وكفر مَن يؤمن

ببعض الرسل ويكفر ببعض، ويناقش ـ تبارك وتعالىٰ ـ فريقًا من هؤلاء في اعتقاداتهم الخاطئة، ويُعرِّيهم في مواقفهم السيئة. حيث يقول عز من قائل:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾

يخبر الله سبحانه ويتوعَّد الكافرين به، من اليهود والنصارى وغيرهم.

وينصبّ التهديد الإلٰهي هنا خاصة علىٰ مَن يكفر ببعض رسل الله؛ حيث فرَّقوا بين الإيمان بالله تعالىٰ، وبين الإيمان برسله، كما فرقوا ـ من جهة أخرىٰ ـ بين رسل الله، إذْ ﴿يَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ لِمجرد العادة، وما وجدوا عليه آباءهم، وليس عندهم دليل علىٰ ما يقولون وما يفترون.

فاليهود ـ عليهم لعائن الله ـ: آمنوا بالأنبياء إلَّا عيسىٰ ومحمدًا عليهما الصلاة والسلام.

والنصارىٰ آمنوا بالأنبياء، وكفروا بخاتمهم وأشرفهم محمد ﷺ.

وغيرهم، وغيرهم.. والمقصود: أن مَن كفر بنبي من الأنبياء، فقد كفر بسائر الأنبياء؛ حيث إن الإيمان واجب بكل نبي بعثه الله إلىٰ أهل الأرض.

والآية صريحة في الدلالة علىٰ أن الكفر برسول الله ﷺ كفر بالله تعالىٰ ورسله جميعًا.

وفيها الرد الواضح علىٰ كل مَن يعز عليه أن يسمىٰ كافرًا، وفي ذات الوقت لا يعطي قضية الإيمان كل لوازمها ومقتضياتها.

ولذا يقول تعالىٰ عن هؤلاء: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ﴾ أي: كفرهم ثابت لا شك فيه، ولا مجال لإنكاره منهم أو من غيرهم.

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ يعني: هيأنا وأعددنا وجهزنا للكافرين من هؤلاء، أو من غيرهم ﴿عَذَابًا مُّهِينًا﴾ فيه: إيلام لهم، ومهانة وإذلال يستحقونه، ويجازون به، بسبب استهانتهم بمن كفروا به، أو لعدم نظرهم فيما جاء به من الله، وإقبالهم علىٰ جمع حطام الدنيا، أو بسبب كفرهم به بعد علمهم بنبوته.

وأما الذين آمنوا بالله وبكل الرسل، يقول عنهم رب العزة سبحانه وتعالىٰ:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾

ولا يوجد هذا الوصف ـ بعد البعثة المحمدية ـ لأحد أبدًا إلَّا لمن تابع محمدًا ﷺ، وآمن برسالته، حيث إن أمته تؤمن بكل نبي، وتؤمن بكل كتاب.

وهؤلاء أعدَّ الله لهم الجزاء الجزيل، والثواب الجليل، والعطاء الجميل.

حيث يقول: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ وذلك: جزاءً لهم علىٰ إيمانهم بالله تعالىٰ وكل رسله.

بل أكثر من ذلك يعدهم بالمغفرة والرحمة؛ حيث يقول: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: غفورًا لذنوبهم إن كان لهم ذنوب، رحيمًا بهم في الدنيا والآخرة.

وبعد تقرير هذه المفاهيم، يبدأ ربنا ـ تبارك وتعالىٰ ـ وهو الحكيم العليم في بيان ظلم اليهود، الذين لم يؤمنوا برسول الله محمد ﷺ، فيقول عنهم:

﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾﴾

نزلت هذه الآية الكريمة في أحبار اليهود وعلمائهم؛ حيث قالوا لمحمد ﷺ: إن كنت نبيًا حقًا فأتنا بكتاب من السماء جملة، كما أتى موسىٰ بكتابه إلينا جملة، أو إن كنت نبيًّا حقًّا فأتنا بكتاب بخط سماوي في ألواح، كما نزلت التوراة علىٰ موسىٰ، أو إن كنت نبيًّا حقًّا فأتنا بكتاب ينزل إلينا بأسمائنا يخبرنا بأنك رسول الله.

وما كان قصدهم من هذه الأقوال كلها إلَّا التعنّت والعناد والجدال.

يقول الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: ولو سألوه لكي يتبيَّنوا الحق ويعرفوه، فيسلموا ويتبعوه ﷺ لأعطاهم الله تبارك وتعالىٰ.

علىٰ كل حال لا تستغرب منهم يا محمد، ولا تستكبر عليهم هذا التعنّت ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ أي: سأل آباؤهم موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ تعنتًا أيضًا، وطلبوا منه مطالب أكبر وأغرب مما سألوك إياه، حيث قالوا له كما يخبر ربّ العزة عن ذلك بقوله:

﴿فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾ أي: نراه بأعيننا، وهؤلاء هم السبعون الذين خرجوا مع موسى عليه السلام إلىٰ الجبل للقاء ربه، كما في قوله تعالىٰ:

﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ﴾ يعني: أخذهم العذاب الهائل، أو النار المحرقة لدرجة موتهم، وذلك بسبب ظلمهم وتعنتهم، وتحكمهم علىٰ نبيهم في سؤال الرؤية، وليس بسبب السؤال ذاته.

ومع ذلك فقد أحياهم الله تعالىٰ بعد موتهم، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ۝٥٥ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥، ٥٦].

فهل شكروا الله تعالىٰ، وتابوا عن ظلمهم..؟

كلا. وألف كلا..!!

﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ يعني: اتخذوا العجل إلٰهًا لهم من دون الله، بالرغم من توافر الدلائل الواضحات، والآيات البينات، علىٰ وجود الله تعالىٰ ووحدانيته، وقدرته، وعلىٰ صدق موسىٰ عليه السلام.

وهنا.. ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ﴾ [البقرة: ٥٤].

ففعلوا ما أمروا به ـ كما يقول الإمام ابن كثير رحمه الله ـ فغفر الله تعالىٰ للقاتل والمقتول.

يقول تعالىٰ: ﴿فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ﴾ يعني: هؤلاء الذين أجرموا قديمًا باتخاذهم العجل، قد تابوا إلىٰ بارئهم، واستجابوا لأمره ونفذوا حكمه بأن يقتل بعضهم بعضًا، فعفونا عنهم، ولم نستأصلهم وننه علىٰ وجودهم بالكامل.. فتوبوا أنتم أيضًا يا مَن تعاندون محمدًا ﷺ، وتتعنتون معه في طلباتكم منه، وأسئلتكم له.

وأما عن موسى عليه السلام فيقول رب العزة: ﴿وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا﴾ أي: أعطيناه دليلًا دامغًا لكفرهم، مظهرًا وكاشفًا لعنادهم.

ولذلك: فانحرافهم وكفرهم نتيجة لطبيعتهم القاسية، وقلوبهم المتحجرة.

ولذا لا يُستغرب كفرهم الحالي، وانحرافهم عن الحق، وظلمهم لأهله؛ حيث إن وضعهم هذا امتداد لوضعهم ذلك.

فهل يُنتظر ـ بعد ذلك ـ منهم خير..؟ كلا.. وألف كلا..!!

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾

هذه ألوان من تعنتهم، وصور من عنادهم وكفرهم:

أ ـ جاءهم موسىٰ عليه السلام بشريعة التوارة ليلتزموا بها فامتنعوا وأبوا، فرفع الله علىٰ رؤوسهم جبلًا؛ ليلزمهم بها، فخافوا والتزموا، وأخذ عليهم الميثاق بذلك.

ولكنهم ـ بعد ذلك ـ نقضوا هذا العهد والميثاق.

ب ـ **وقيل لهم**: ادخلوا باب القدس سجدًا، أي مطأطئين الرؤوس، خاضعين لله، متواضعين لعظمته فاستجابوا ودخلوا، ولكنهم دخلوا مخالفين؛ حيث دخلوا علىٰ غير ما أمروا به من الخضوع والتواضع.

جـ ـ **وقيل لهم**: احفظوا «السبت» أي يوم السبت، فلا تعتدوا فيه وتصطادوا، والتزموا بشرع الله هذا. ولكنهم خالفوا وعصوا، واحتالوا علىٰ ارتكاب ما حرم الله عليهم.

د ـ أخذ الله عليهم عهدًا شديدًا، وميثاقًا غليظًا بالتزام شرعه، وتنفيذ أحكامه ولكنهم خالفوها جميعًا، ونقضوها واحدًا واحدًا، ولذلك قال تعالىٰ:

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾

تفيد هذه الآيات الكريمة وما بعدها أن الله جلَّت حكمته وتعالت عظمته.. عاقب الذين كفروا وعاندوا من اليهود بأمرين، هما:

الأول: حرَّم عليهم طيبات كانت حلالًا لهم.

يقول الله تعالىٰ: ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠].

الثاني: أعدَّ لهم عذابًا أليمًا في الآخرة.

يقول الله تعالىٰ: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٦١].

وكان هذا العقاب: بسبب ارتكابهم عدة مخالفات سيئة، هي:

الأول: بسبب نقضهم المواثيق والعهود.

الثاني: كفرهم بآيات الله ومعجزاته، التي شاهدوها علىٰ أيدى الأنبياء عليهم السلام.

الثالث: قتلهم الأنبياء ظلمًا وعدوانًا.

الرابع: قولهم ـ زورًا وبهتانًا ـ قلوبنا غلف، **أي**: مغطاة، لا يصل إليها وعظ أو تذكير.

الخامس: كفرهم بعيسىٰ عليه السلام.

السادس: بقولهم علىٰ مريم عليها السلام بهتانًا عظيمًا.

السابع: قولهم ـ كذبًا ـ ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧].

الثامن: بظلمهم في تعدِّيهم علىٰ شرع الله.

التاسع: صدّهم عن سبيل الله خلقًا كثيرًا، ومنعهم من الإيمان بالله ورسله.

العاشر: تحليلهم للربا وتعاطيهم له، وقد حرِّم عليهم، ونهوا عنه.

الحادي عشر: أكلهم أموال الناس بالباطل، كالرشوة وغيرها من سائر المعاملات المالية المحرمة.

وهنا قضية ينبغي الإشارة إليها وهي: اعتذار اليهود عن عدم إيمانهم بأن ﴿قُلُوبُنَا﴾، أي مغطاة، ومحجوبة عن وصول الموعظة إليها، وهو اعتذار قبيح لا يليق.

ولذلك ردَّ الله عليهم بقوله عز وجل: ﴿بَل طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: بسبب كفرهم وجحودهم، وليس بسبب ما قالوا، أحدث عليها مانعًا من وصول الحق، فلا يؤمن منهم إلَّا قليل، كعبد الله بن سلام، وأمثاله، بل حتىٰ اليوم لا يؤمن منهم إلَّا القليل. يقول الله تعالىٰ لبيان مساوئهم:

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾﴾

يعني: وبسبب قولهم هذا ولعنادهم عاقبناهم، حيث قالوا: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ مفتخرين مبتهجين بقتل النبي، والاستهزاء به، إذْ قالوا عنه ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾ وهم لم يؤمنوا به ولا برسالته.

وقد نفىٰ الله سبحانه قتله أو صلبه عليه السلام، وكذَّب ادعاءهم هذا بقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ يعني: أنهم ما قتلوا عيسىٰ عليه السلام، وما صلبوه ـ كما زعموا ـ بل قتلوا وصلبوا شبيهه، لا هو، وأما عيسىٰ عليه السلام فرفعه الله إليه.

ثم إن القوم لمَّا لم يجدوا عيسىٰ عليه السلام ولا الرجل الذي كان معه، وقعوا في الحيرة، وقالوا: إن كان هذا المصلوب عيسىٰ فأين الرجل الذي كان معه..؟ وإن كان المصلوب هو الرجل، فأين عيسىٰ؟ ومن هنا: وقع الخلاف بينهم في ذلك.

يقول الله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ أي: في عيسىٰ عليه السلام.

ويلاحظ في هذا الاختلاف: أنه إن كان أثناء محاولة القتل أو قبلها، يكون المختلفون هم اليهود. كما أنه إن كان بعد محاولة القتل يكون المختلفون هم النصارىٰ.

علىٰ كل حال إن كان المختلفون هؤلاء أو هؤلاء: فـ ﴿ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ أي: أنهم لا يعلمون الحقيقة.

حيث قال بعضهم لمَّا رأوا المقتول: الوجه وجه عيسىٰ، والجسد ليس بجسده، ولذا فليس هو عيسىٰ. وقال بعضهم: بل هو عيسىٰ نفسه.

وأما الحقيقة فيذكرها الله تعالىٰ بقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ أي: أنهم ما قتلوه حقًّا ويقينًا، أو أنهم ما قتلوه متيقنين من ذلك.

﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾

يعني: رفعه الله إلىٰ موضع في السماء، وهذا الموضع هو السماء الثالثة.

كما في حديث الجامع الصغير من قوله ﷺ: **«آدم في السماء الدنيا، تعرض عليه أعمال ذريته، ويوسف في السماء الثانية، وابنا الخالة: يحيىٰ وعيسىٰ في السماء الثالثة...» إلخ.**

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ يعني: عزيزًا في ملكه، والمراد من العزة كمال قدرته سبحانه، وفي ذلك تنبيه علىٰ أن رفع عيسىٰ عليه السلام إلىٰ السمٰوات ـ وإن كان بعيدًا علىٰ البشر ـ لكنه غير بعيد علىٰ قدرة الله عز وجل.

وكذلك هو سبحانه حكيم في صنعته، والمراد من الحكمة ـ كذلك ـ كمال العلم، وفي ذلك تنبيه علىٰ أن هذا الرفع غير خالٍ من الحكمة التي لا يعرفها إلا هو سبحانه وتعالىٰ. ولكل هذا، فهو سبحانه لا يرام جنابه، ولا يضام مَن لاذ ببابه، ولجأ إلىٰ حماه.

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾

هذه الآية الكريمة تحتمل معنيين:

المعنىٰ الأول: وما من أهل الكتاب ـ اليهود والنصارىٰ ـ أحدٌ إلَّا ليؤمنن بعيسىٰ عليه السلام، قبل موت عيسىٰ في آخر الزمان.

وهؤلاء: هم الذين يكونون في زمان نزول عيسىٰ قبل يوم القيامة، وهذا هو المعنىٰ الراجح.

المعنىٰ الثاني: وما من أهل الكتاب أحدٌ إلَّا ليؤمنن قبل موته ـ هو ساعة الغرغرة ـ بعيسىٰ عليه السلام، وبأنه عبد الله ورسوله.

وذلك يكون قبل أن تزهق روحه، حين لا ينفعه إيمانه؛ لانقطاع وقت التكليف.

عن شهر بن حوشب قال: **اليهودي** إذا حضره الموت، ضربت الملائكة وجهه ودبره، وقالوا: يا عدو الله، أتاك عيسىٰ نبيًّا فكذبت به، فيقول: آمنت بأنه عبد الله ورسوله.

والنصراني كذلك، ويقال له: أتاك عيسىٰ نبيًّا، فزعمت أنه الله وابن الله، فيقول: آمنت بأنه عبد الله.

فأهل الكتاب يؤمنون به، ولكن حيث لا ينفعهم ذلك الإيمان.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ يعني: يشهد عيسىٰ علىٰ اليهود بأنهم كذَّبوه، ويشهد علىٰ النصارىٰ بأنهم غلّوا فيه.

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾

في هاتين الآيتين يعود السياق للحديث عن اليهود ومخالفاتهم وعقوباتهم، بعد مناقشة ادعائهم قتل المسيح عليه السلام، واختلافهم هم والنصارىٰ بخصوصه عليه السلام.

والمعنىٰ: بسبب ظلم اليهود، وصدّهم الخلق الكثير عن سبيل الله ودينه، وأخذهم الربا بعد أن حرِّم عليهم، ونُهُوا عن التعامل به، وأكلهم أموال الناس بغير حق ـ إلىٰ جانب مَن سبق ذكره من مخالفتهم.

بسبب كل ذلك حرَّم الله عليهم طيِّبات كانت حلالًا لهم، ولمن تقدمهم من أسلافهم، ولكنهم افتروا على الله سبحانه وقالوا: لسنا بأول مَن حرمت عليه، وإنما كانت محرمة على إبراهيم ونوح عليهما السلام، ومَن بعدهما، حتى انتهى الأمر إلينا.

ولكن الله تعالى كذَّبهم في مواقع كثيرة، وبكَّتهم على ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۗ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣] فيما زعمتموه.

وبالتالي: حرمها عليهم، وكذلك أعدَّ لهم ـ إلى جانب هذا التحريم ـ عذابًا أليمًا في الآخرة. ثم قال تعالى:

﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾

هذه الآية الكريمة نزلت في عبد الله بن سلام رضي الله عنه وأمثاله من اليهود، الذين دخلوا في الإسلام، وصدقوا بمحمد ﷺ، وما أنزل عليه واتبعوه.

والمعنى: إذا كان عامة اليهود ينقضون الميثاق، ويكفرون بآيات الله ورسله، ويقتلون الأنبياء بغير حق!! فإن الراسخين في العلم منهم الثابتون فيه، المتقنون له، المستبصرون، غير التابعين للظن، الذين آمنوا، وصدقوا بالحق

هؤلاء: يؤمنون بالقرآن الذي أنزل إليك، ويؤمنون بما أنزل من قبلك من الكتب السابقة على إخوانك من الأنبياء عليهم السلام، ويقيمون الصلاة، ويحافظون عليها، ويؤتون زكاة الأموال والأنفس، ويؤمنون باليوم الآخر، يوم القيامة، يوم الجزاء، ويستعدون له بالعمل الصالح.

هؤلاء الموصوفون بهذه الصفات من أهل الكتاب ﴿سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ وهو الجنة.

قال بعض اليهود لمحمد ﷺ: ما نعلم أن الله أنزل على بشر شيئًا من الوحي بعد موسى عليه السلام، فأنزل الله تعالى ردًّا عليهم، مخاطبًا نبيه محمدًا ﷺ:

﴿۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣﴾

والمعنى: أن إنزال الوحي عليك يا محمد ﷺ ليس بدعًا، بل أوحي، كما أوحي إليك إلى الرسل من قبلك.

فقد ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ كهود وصالح، وشعيب عليهم السلام.

وكذلك ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ أي: أولاد يعقوب عليهم السلام.

وأوحينا كذلك إلى ﴿عِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ﴾.

وكما آتيناك القرآن، فقد ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ وهو الكتاب الذي أوحاه الله إلى دواد عليه السلام.

ويلاحظ أن الله تعالى بدأ بذكر نوح عليه السلام؛ لأنه أول نبي بُعث بشريعة، وأول نذير على الشرك، وأنزل الله عليه عشر صحائف، وأول نبي عُذِّبت أمته لردهم دعوته، وأُهْلِك أهل الأرض بدعائه، وكان أبا البشر كآدم عليه السلام، وكان أطول الأنبياء عمرًا، وقد صبر على أذى قومه طول عمره.

ثم ذكر الله تعالى الأنبياء من بعده جملة، بقوله: ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾.

ثم خصَّ جماعة من الأنبياء بالذكر لشرفهم وفضلهم، فقال: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ الآية.

وبعد هذا يبيِّن رب العزة أن هؤلاء الرسل إلى البشر كثيرون، وذلك في قوله تعالى:

﴿وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾

يعني: ومن هؤلاء الرسل مَن سمَّيناهم لك في القرآن الكريم، وعرَّفناك أخبارهم، وإلى مَن بُعثوا من الأمم، وما حصل لهم من قومهم.

وكذلك: من هؤلاء الرسل الكثيرون.. مَن لم نذكر لك أسماءهم، ولم نعرِّفك

أخبارهم، وأن هؤلاء الرسل عليهم السلام: كان يوحىٰ إليهم، وأن هذا الوحي منه ما كان كلامًا من الله مباشرًا لرسوله، مثلما كان مع موسىٰ عليه السلام.

كما يبيِّنه قوله تعالىٰ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ أي: بلا واسطة، وهذا تشريف لموسى عليه السلام.

ثم يبِّين ربنا جل وعلا حكمة إرساله الرسل إلىٰ البشر، في قوله تعالىٰ:

﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٦٥﴾

ومعنىٰ الآية: أرسلنا رسلًا إلىٰ البشر يبشِّرون مَن أطاع الله ورسله منهم بالخيرات ورضوان الله، ويُنذرون مَن عصىٰ الله وخالف أمره، وكذب رسله بالعقاب والعذاب.

وكان هذا الإرسال للرسل، وهذا التبشير والإنذار منهم، حتىٰ لا يبقى لمعتذر عذر.

ولئلا يقول هؤلاء الذين ضلُّوا: لولا أرسلت إلينا رسولًا، فيبيِّن لنا شرائعك، ويعلِّمنا ما لم نكن نعلم من أحكامك، حتىٰ يوقظنا من غفلتنا، وينقذنا من ضلالنا.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ أي: عزيز لا يمنعه أحد من فعل ما يريد، ولا يغلبه أحد فيما يريد.

حكيم في قطع الحجة علىٰ المعاندين بإرسال الرسل، وتنوّع الوحي إليهم، وإظهار المعجزات علىٰ أيديهم.

﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ١٦٦﴾

نزلت هذه الآية الكريمة علىٰ النبي ﷺ حينما سأل أهل الكتاب إنزال كتاب من السماء، كما في قوله تعالىٰ: ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ﴾ [النساء:١٥٣] واحتج الله عليهم، وقطع طلبهم بقوله عز وجل:

﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [النساء: ١٦٣].

قالوا: لا نشهد لك بهذا أبدًا.

فقال تعالىٰ: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ﴾.

ومعنىٰ الآية: إن كانوا ينكرون ويكفرون، ولا يشهدون لك يا محمد بالنبوة، فإن الله

يشهد لك، ويبيِّن نبوتك بما أنزل إليك من القرآن، البالغ الفصاحة، والبلاغة إلىٰ حيث عجز الأولون والآخرون عن معارضته، والإتيان بمثله.

ثم وضَّح ـ سبحانه وتعالىٰ ـ صفة هذا الإنزال بقوله: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ أي: أنزله وهو عالم بأنك أهل لإنزاله عليك، وأنك مبلغه إلىٰ عباده، كما أنه سبحانه أنزله بما فيه مصالح عباده، التي يحتاجون إليها في معاشهم ومعادهم.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ لك أيضا بنبوتك.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ علىٰ نبوتك، حيث أقام لها المعجزات الباهرة، والحجج الظاهرة، التي تغني عن الاستشهاد بغيرها.

وما دام الأمر كذلك، فلا تهتم بتعنّت أهل الكتاب وأكاذيبهم. ولا تهتم كذلك.بتكذيب المشركين لك، وشماتتهم وتفاهتهم.

ثم يهدِّد الله تعالىٰ قومًا من هؤلاء المعاندين المكذبين قائلًا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾﴾

ومعنىٰ الآية: إن الذين كفروا بالله تعالىٰ، وصدوا الناس عن دين الإسلام بمنعهم من اعتناقه، أو منعهم من العمل بأحكامه واتباع شرعه، أو بكتمانهم نعت محمد ﷺ، كما فعل اليهود، هؤلاء قد ضلوا عن الصواب ﴿ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾؛ لأنهم جمعوا بفعلهم هذا بين ضلالهم، وإضلالهم لغيرهم، وعليهم بالتالي: إثمهم، وإثم غيرهم ممن ضلَّ بإضلالهم.

وبعد ذلك: يهدِّد المولى عز وجل مَن علم أنهم لن يؤمنوا، ولن يهتدوا، بل سيموتون علىٰ الكفر، قائلًا جل جلاله:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾

ومعنىٰ الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله، ورسله، وكتبه، واليوم الآخر.

﴿وَظَلَمُوا۟﴾ أنفسهم بارتكابهم ما حرم الله، وامتناعهم عن فعل ما أمر به، وغيرهم بإغوائهم وصدهم عن سبيل الله، **وكذلك.** ظلموا الظلم العظيم لرسول الله ﷺ بإنكارهم نبوته، وتحريفهم ما ورد في نعته بالكتب السابقة.

﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ ما داموا على الكفر، وماتوا عليه.

﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ من الطرق.

﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ أي: سوى الطريق المؤدي إلى جهنم.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ يعذبون فيها، لا يستريحون لها، ولا يخرجون منها.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ حيث إنه لا يتعذر عليه شيء مما يريد.

وبعد أن أصبحت هذه الأمور واضحة، يكون النداء إلى الناس جميعًا في قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾

ومعنى الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ كل الناس: اليهود، وغير اليهود، ومَن تأثر باليهود، ومَن خُدع بتحريف اليهود..!! قد جاءكم محمد ﷺ بالهدى، ودين الحق، والبيان الشافي من الله تعالى، فآمنوا به وبما جاءكم به، واتبعوا ما دلكم عليه وأرشدكم إليه، يكن خيرًا لكم في الدنيا والآخرة.

وأما إذا كفرتم بمحمد ﷺ وبما جاءكم به: فإن الله غني عنكم وعن إيمانكم، ولا يتضرَّر بكفركم إلا أنتم، حيث إن الله تعالى مالك السمٰوات والأرض وما فيهن، ومن فيهن، وهو العليم بمن اهتدى أو ضل، وبمن يستحق الهداية فيهديه، وبمن يستحق الغواية فيغويه، وهو الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره سبحانه.

وبعد أن خاطب الله عز وجل اليهود، وردَّ عليهم أكاذيبهم وافتراءاتهم يخاطب النصارى قائلًا:

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ ۚ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾

والمعنى: ﴿لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ لا تجاوزوا الحد المشروع فيه، كما فعل

اليهود، حينما حطوا المسيح عليه السلام عن منزلته، وقالوا: إنه ابن زنا، وكما فعلتم أنتم أيها النصارىٰ وما تزالون، حينما رفعتم المسيح عن منزلته، وتقولون إنه ابن الله.

وكذلك ﴿لَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ أي: إلَّا بما يليق به سبحانه من الحق، فلا تجعلوا له صاحبة ولا ولدًا، أو غير ذلك مما لا يليق به.

واعلموا جيدًا أنه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ ليس ربًّا، ولا ابنًا للرب، وإنما هو رسول من عند الله كغيره من الرسل، عليهم الصلاة والسلام.

﴿وَكَلِمَتُهُۥ﴾ أي خلق بالكلمة، وهي: ﴿كُن﴾ [البقرة: ١١٧] فكان.

﴿أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ أي جاء بها جبريل إلىٰ مريم عليها السلام.

﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أي روح مصدرها من الله، ومخلوقة من قبله بتخليقه وتكوينه سبحانه. هذا هو عيسىٰ عليه السلام، وهذه هي حقيقته.

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ أي: فصدِّقوا بأن الله واحد أحد، لا صاحبة له ولا ولد، وآمنوا بكل رسله، ومنهم عيسىٰ ومحمد عليهم جميعًا الصلاة والسلام.

﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ﴾ أي: بعد أن عرفتم وحدانية الله.. لا تقولوا الإله ثلاثة: أب، وابن، وروح قدس.

﴿ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ أي: انتهوا وكفوا عن مقولة التثليث هذه، فهو أفضل لكم فهمًا وعقيدة ودينًا.

واعلموا جيدًا ـ أيضًا ـ أنه: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ فلا تقولوا ثلاثة.

﴿سُبْحَانَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ فلا تقولوا المسيح ابن الله، ولكنه عبد الله ورسوله، هذا الإله الواحد سبحانه ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خلقًا وملكًا.

وإذا كان يملك سبحانه جميع ما فيهما.. ومن جملة مَن يملك فيهما عيسىٰ: فكيف يتوهم كون عيسىٰ عليه السلام ولدًا له..؟ ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي: حافظًا ومديرًا لهما ولشؤون ما فيهما، ومَن فيهما.. فلا حاجة له إلىٰ ولد يعينه.

ثم يقرِّر ويؤكِّد ما سبق من المعاني التي وردت في الآيات السابقة، حيث يقول الحق تبارك وتعالىٰ:

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾

هذه الآية ترد على النصارى، ومَن عبد الملائكة من العرب.

ومعناها: أن عيسى عليه السلام لن يأنف من العبودية لله، وكذلك الملائكة المقربون، وهم الذين حول العرش، وجبريل، وميكائيل، وإسرافيل، ومَن في طبقتهم، لا يأنفون أن يكونوا عبيدًا لله تعالى.

وأمَّا مَن يأنف عن عبادته سبحانه استكبارًا واستعلاءً، وكذلك مَن لا يأنف عن ذلك، ولا يستكبر، فيحشرهم رب العزة يوم القيامة جميعًا، ويجازيهم كلٌّ على حسب موقفه.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾

يعني: فأما الذين آمنوا بالله ورسله، وعملوا الصالحات، من الخضوع لله، والعمل بشرعه، وإسعاد العباد وإصلاح البلاد، فيعطيهم أجورهم، ويوفِّيهم ثواب أعمالهم.

وأما الذين استنكفوا واستكبروا عن الإيمان بالله ورسله، فيعذِّبهم في النار عذابًا مؤلمًا.

﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ يدفع عنهم هذا العذاب، ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يمنعهم وينجِّيهم منه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾

هاتان الآيتان: فيهما خطاب إلى الناس جميعًا، يحثّهم على الإيمان بالله تعالى، والاعتصام بالقرآن الكريم.

والمعنى: يا أيها الناس جميعًا، قد جاءكم من ربكم برهان عظيم، وحجة واضحة، ودليل لا لبس فيه قاطع للعذر، مزيل للشبهة، وهذا البرهان هو: محمد ﷺ بصورته ومعناه، بخصائصه وصفاته وبمعجزاته؛ حيث إنه دليل على أنه مرسل من ربه.

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ وهو القرآن، ضياءً واضحًا، يبيِّن لكم الحق في كل قضية، فلا تبقىٰ مع هديه أمام عقولكم، ولا أمام قلوبكم ظُلمة إلَّا أزالها، ولا في حياتكم عقبة ولا مشكلة إلَّا أرشد إلىٰ حلها.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ﴾ وهم الذين جمعوا بين مقامي العبادة، والتوكّل علىٰ الله في جميع أمورهم، علىٰ ضوء كتاب الله، سيرحمهم الله، ويدخلهم الجنة، ويزيدهم ثوابًا مضاعفًا، ورفعًا لدرجاتهم من فضله عليهم وإحسانه إليهم، ويهديهم إليه طريقًا واضحًا لا اعوجاج فيه ولا انحراف.

وهذه هي صفة المؤمنين في الدنيا والآخرة، فهم في الدنيا علىٰ منهج الاستقامة، وطريق السلامة في جميع الاعتقادات والأعمال، وهم في الآخرة علىٰ صراط الله المستقيم، المفضي إلىٰ روضات الجنات.

وبمناسبة كون هذا القرآن نورًا وضياءً وهداية في كل شيء، فقد ختمت السورة بهذا الاستفتاء التالي، وجوابه: يقول تبارك وتعالىٰ:

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾

هذه الآية هي آية الصيف؛ حيث إنها كما يبدو نزلت في فصل الصيف وتعرف بـ: «آية الكلالة»؛ لأنها قد جاءت بحكم ميراث الكلالة.

وفي البخاري عن البراء بن عازب رضي الله عنه: أنها آخر آية نزلت في آيات الميراث.

وقد نزلت هذه الآية، بسبب جابر بن عبد الله رضي الله عنه.. قال: مرضت، فأتاني رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه، يعوداني، ماشيين، فأغمي عليَّ، فتوضأ رسول الله ﷺ، ثم صبَّ عليَّ من وضوئه، فأفقت، فقلت: يا رسول الله.. كيف أقضي في مالي..؟ فلم يرد عليَّ شيئًا، حتىٰ نزلت آية الميراث: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ [رواه: مسلم].

وفي موضوع الكلالة هذا اختلاف كثير، حتىٰ إن عمر رضي الله عنه كان يقول ـ كما ثبت

في الصحيحين ـ: «ثلاث وددت أن رسول الله ﷺ، كان عهد إلينا فيهن عهدًا ننتهي إليه: **الجدُّ، والكلالة، وباب من أبواب الربا**».

والذي قضىٰ فيه أبو بكر رضي الله عنه: أن «الكلالة» مَن لا والد له ولا ولد.

وهذا هو الذي عليه جمهور الصحابة والتابعين، والأئمة في قديم الزمان وحديثه.

وهو الذي عليه مذاهب الأئمة الأربعة، والفقهاء وقول علماء الأمصار، وهو الذي دل عليه القرآن الكريم، ولذا لا عبرة بقول مَن خالف هؤلاء.

وحكم ميراث الكلالة.. علىٰ النحو التالي:

الحالة الأولىٰ: إذا مات امرؤ وكان رجلًا وليس له والد، ذكرًا كان أو أنثىٰ، وكذلك ليس له ولد، ذكرًا كان أو أنثىٰ، وله: أخت، سواء كانت لأب وأم، أو لأب فقط.

فللأخت المذكورة في هذه الحالة: نصف ما ترك.

الحالة الثانية: إذا مات امرؤ وكانت امرأة، وليس لها والد ولا ولد، ذكرًا كان أو أنثىٰ ولها: أخ، سواء كان لأب وأم، أو لأب فقط.

فللأخ المذكور في هذه الحالة: جميع ما تركت.

الحالة الثالثة: إذا مات امرؤ، رجلًا كان أو امرأة، وليس له والد ولا ولد، ذكرًا كان أو أنثىٰ، وله أختين اثنتين، سواء كانتا لأب وأم، أو لأب فقط، أو واحدة هكذا، وواحدة هكذا.

فللأختين المذكورتين في هذه الحالة: ثلثا ما ترك.

الحالة الرابعة: إذا مات امرؤ، رجلًا كان أو امرأة، وليس له والد ولا ولد، ذكرًا كان أو أنثىٰ.. وله إخوة وأخوات، سواء كانوا لأب وأم، أو لأب فقط، أو من هؤلاء وهؤلاء.

فللإخوة والأخوات المذكورين في هذه الحالة: ثلثا ما ترك، يقسم بين جميعهم، للذكر مثل حظ الأنثيين.

وهكذا ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ الأحكام والشرائع، وما تحتاجون إليه لئلا تضلوا.

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يعلم ما ينفعكم وما يضركم، فيبيِّن لكم هذا وذاك، فاتبعوا بيانه، ولا تتركوه إلىٰ غيره.

* * *